الشويرة

محمد بن سيف الرحبي

إذ تلقّفَك مسارك المعتاد قريبا من ضاحية (الهناقرة)[1] تصاعدت أبخرة من مرارتك، تكسّر شيءٌ في عمق روحك، لا تعرفه بالضبط، شظاياه تمزقك، زجاجه يجرح بواطنك، وأنت ماض في سيرك..

طعم التمر عالق في أسنانك ونكهة القهوة مرّة أكثر مما ينبغي تكاد تشقّ حلقك، والدائرة المعتادة في سبلة سعيد بن سالم كل ضحى سقتك المرارة دون وعي منك، وغالبا، بوعي منها.

حسبت أن قلبك أدمن الطعن، لكن نزفك ينجرف إلى عمقك، يغرق دواخلك، وأنت غارق بين غيبوبة وغياب، عين على الأمس، عين على اليوم، لا تجد أخرى على المتبقي من زمن طال بك، زمنك أيها المجروح، طائل أكثر مما يتحتم عيشه، وفائض فوق قدرة قريتك سرور لتغتابه، من أقصاها إلى أقصاها، الرجل الذي نسيه الموت، مع أنك لم تنس ما غرسته في فؤادك من طعن، ومع ذلك لا تستطيع سوى العيش فيها.

تتساقط عليك أشعة الشمس في يوم جديد ترتاده في سرور القديمة، وتلك الشويرة فاتحة ذراعيها بالوصيد، هناك، حيث لا تروم اختيالا في

(1) الهناقرة: الأثرياء.

دروبها إلا محنيّ الجسد، هزيل الروح، والبيت العود[2]، تكاد تسمع صوته يبكي، البكاء يتكوّم في صدرك كتلال الشويرة، وصولا إلى جبلها الشرقي، يوقظها بعد كل فجر من غفوة لياليها، يلقي عليها شمسه، مع أنك تتذكر بأن العيون لم تكن تنام، وأن الفجر كان يبتسم بإشراقته على الوجوه المتعبة وهي ترتقي سفوح الجبال باحثة عن لقمة لمواشٍ تترقب حفنات ورق السمر تلقي إليها بأشواك كلما باغتت حامل الوقر على رأسه..

وحدك تعرف صوت البيت العود إذ يبكي..

ذلك بكاؤك، صدى نشيج قلبك.

في التفافات الدرب أمامك لا تكف عن تخيّل المرأة الغريبة تطل عليك كما اعتادت، واعتدت، على مصادفاتها أمام باب البيت العود، تمدّ إليك بتلك الحلوى العجيبة وتحتضنك، وتخرج، مولّية ظهرها إلى المشرق، تخرج من فم الشويرة نحو بدايات السيح، متتبعة الدروب نحو الجبل الشرقي، يقولون إنها تخيّلاتك التي لا تتوانى عن اقتيادك نحو المجهول، لم يصدقوا قولك أنها احتضنتك وألقمتك صدرها، وشربت من ثديها سائلا ليس فيه طعم الحليب، لكن نكهته من النوع الذي يبقى في حلقك عشرات السنين، كأنه ماء الحياة الأبدية.

كأنك آخر المحاربين تزحف بالخطوات على الدرب الضيق، تشققت أقدامك من تكرار العبور، والخطوات ليست إلا محض فراغ، والمسافات

(2)العود أو العودة: بمعنى الكبير أو الكبيرة.

تثقلك، تضع تاريخك على كتفك، تاريخ الأسلاف المتناسلين من حيث لا تدري، اليمام المتقافز بين سعفة نخل وتاليتها له مواجعه، ما تبقى من جدران سرور العتيقة شاهد على فواجع مرّت، اندثرت جدران ومواجع..

لكنك لم تندثر، وبقيت مواجعك حاضرة، لا تريد من أي نافذة شقية تهب على روحك، بيدك المال القادر على إدراك لحظات السعادة، لكن شقاءك تحمله روحك، مخلوق من ذاكرة شقية، تنكث آثار العشق المجنون كأنه البارحة، وقد عبرته عشرات السنين رسمت أكثر من قرن على جبهتك.

كأنهم قالوا بأن العاشق أوجع بطن معشوقته بحمل، أغوته حرارة الجسد فلم يبال بعواقب، وتتكرر حكاية الهروب، لكن شهامة الجد لا أحد يستعيدها، وحده العشق والجنين المشبوه من يقبض على جمر الذاكرة.

أما عشقك فتحسب أنه لم يقبض عليه أحد لولا أن بطن رابعة انتفخ أيضا، حملت حملك ومضت،اختفت، ظننت أن حكاية العريش[3] في طرف الحارة البعيدة ماتت، لكن سبلة سعيد بن سالم فاجأتك بها، هناك، في مكان ما، ابن لك أو بنت، غبن أو غبنة، ابن حرام، ينتظر فرصته للخروج إليك، ما أقسى ما تترقب، ما أألم ما تتوقع!.

قاربت جسد رابعة، في عبق رائحتها تنسى زوينة، وعمرك، وسرور،

(3) العريش: الغرفة المبنية من سعف النخيل.

تنسى كل شيء، إلا جسد رابعة، تدخل مساماته، لكنها في ليلتها تلك لم تكن على عادتها، فاضت العينان بالدمع، وأدركت، أيها العجوز الشبق إن رائحةً مختلفةً تهب على أنفك، إعصاراً لا قبل لك به، وعلى العاصفة أن تهبّ بعيدا عن صحرائك، يكفيك ما به من جفاف، وقليل من الغبار كاف ليلفت نظر سرور، حارة حارة.. إليها.

وحدها سرور قابضة على جرحك، تضغط عليه وقتما تشاء، كيفما تشاء، وتدميه متى شاءت، جراحك سواقي فلج تمتد من أول نخلة في سرور إلى آخر نخلة على اتساع ضواحيها وحكاياها، تخرج أسلافك من مقبرتها الشرقية، تنثرهم فوق جراحك كالملح، الجراح العصية، المكابرة مثلك، لا تلتئم ضفافها، ولا تكف عن سكب صديدها على مسارات دربك.

رابعة، ماتت أو لا تزال؟ وما أخرجه بطنها قبل سنين مرت كالجبال.. ما خبره؟

يثقلك السؤال، كما يزحف جبلٌ على ظهرك. العريش القديم لخادوم، تتخيله، كأنك تراه، وترى جدك يخرج إليه أنصاف الليالي ليدفئ روحه بعشقه، أو يحترق جسده بنيران الابنة التي تجرأت بمجاراة عاشق يتسلل من البيت العود.

قدماك تتحركان بثقلهما، واحدة تدفع الأخرى للسير على دروب ألفتها.. مع تكرار السير والمسير..

أيها الموجوع أبدا، لا نخل سرور قادر أن يظلك ولا دروبها تنساب تحت قدميك لتحملك إلى مأمنك الذي تنشده روحك..

رابعة تتحسس بطنها، وتقول لك إن الغرفة الصغيرة التي تأوي إليها، كما هو عريش جدك القديم، تكاد تنهار عليها بسبب هذا الحمل، فكيف به؟ وأنت لست كجدك، ترنحت، خفت على بيتك، زوجتك الصابرة، والأكثر أنك خفت على نفسك، يكفيك ما تحمله من ثقل وضعه جدك على كتفك ومضى، قلت لصابرة أن عليها الرحيل، ستعطيها ريالات كثيرة، ستجد بقعة أخرى تأوي إليها، ستزورها هناك، لكنها لا تعرف إلا هنا، جاءت إلى سرور من حيث لا تدري، امرأة، وجدت نفسها هكذا، أرملة، تعيش على جسدها، تركت جميع الرجال لأجلك..

حصّنتها ضد الباقين بريالاتك، وطلبت منها أن تكون لك، متنفسك.. إنما الحمل حكاية مربكة، ومريبة..

رابعة، كانت، تريدك، وأن تبقى أبا لطفل سيبحث كثيرا عن أب.

خشيت الفضيحة، وغادرت الغرفة الصغيرة، لكنك لم تغادر ذاتك، بقيت سجينا لرابعة، يوم الرحيل ارتحت قليلا، لكنك تعبت من كثرة ما وجدته بعد ذلك الرحيل.

***

بين فخاخ كثيرة مررت، كطائر صفرد، لم تقبض عليه "مزفّارة" عبّود، صائد الطيور الأشهر في سرور يترصد مرور العقاعق ورفرفات اليمام فوق أشجار السمر، ولا أية مزفّارة أخرى قدرت على الإيقاع بك، لكنك

تدرك أن روحك وقعت منذ زمن بعيد في تلك الشباك المنثورة تحت أقدامك، تعثرت، ونهضت، وبنيت مجدك على سعفات آلاف النخيل في سرور، امتلكتها، وتحتها منازل ومنازل تملّكتها.

تسترجع تأريخاً مضى، حينما كانت الحرية تشترى بالمال في عصر من عصور سرور، إنما حريتك قيودها موغلة في قاع الروح، عليك أن تستل حلقاتها الحديدية واحدة بعد أخرى وقد صدأت مع جريان الزمان.

تشعر أنه لا حيلة لك.. لم تبق لك أسلحة تشدّها إلى حزامك البالي، في أمْسِكَ كنت تشدّ بندقية إلى كتفك مع محزم الرصاص على وسطك، لكنك تنازلت عن عادتك يوم أن تعالى صوت الضحكات عليك، ورسالة الوالي التي حملها الشيخ إليك مغاضبا: البلد في أمان وأنت لا زلت في ضلالك القديم؟!

يومها، علقت بندقيتك على وتد في البيت، بيتك الجديد خال من الأوتاد، ليس كمثل البيت العود، لكنك هيّأت وتدا من أجلها، وعلقتها مبقيا شموخها كما هو، ترى فيه شموخك الذي تطلبه.

بندقية عتيقة أهداك إياها والدك، وقال هي هدية سلامة بنت يحيى يوم أن عزم على الرحيل، وعندما أردت الأوبة من البحرين قال لك احملها، وخبئها جيدا، لتصل بك إلى عمان، وستتذكرك سرور بها، البندقية لا تشبه أية بندقية.

بمحاذاة جدار ضاحية الهناقرة سرت.. وتلفت كمن يبحث عن ضائع، تدرك أنه ضياعك، السكينة التي ما وجدتها يوما، لو أن عروق نخيل سرور تدسّها لتتبعتها جذرا بعد آخر، لكنك غارق، أو أنهم أغرقوك، في سنوات مضت، وتكاثرت، وارتفعت أكثر من علو جبال سرور، الشرقية والغربية، ونأت بعجزها عن مداراة أَمْسِك.

صوت مسعود يأتي من بعيد بعيد.. بشجن الرزفة[4]، بإيقاع الطبل المتأرجح طربا على أيدي السامرين في ليل سرور، اقتربت منهم لتستمع، حملت الطبل من يدي خميس، بوغتوا بما فعلت، جذبه أحدهم من يديك، تذكرت أنك سليل البيت العود، لا يليق بك الضرب على الطبل، مهما كان الشجن والحنين.. والتجلي.

هذه السعفات تلوّح بشجن غريب، عرفته قبل يومك، لكنه موجع جدا هذا الصباح، وشديد الوطء عليك.. تمضي في تفقد أصابعك، حزّ الطبل المجذوب من يديك ترك أثره، وصوت مسعود لا يخيّب سمعك، صوت من الأمس البعيد، حاضر لا يزال، إنما تجرّعت سرور زمنها المختلف، عليه وأصحابه البحث عن واد أو مكان بعيد يستمع إلى صوت رزفتهم.. تتمنى في لحظتك هذه أن تصادفه، تلتقيه لتروي قليلا من ظمأ روحك، لكنها سرور، لا تعطيك أحلامك كما تشتهي.

ربما، مسعود مات، تتخيل ذلك، هو مات حقا، منذ سنوات

(4)الرزفة: من الفنون الشعبية المغنّاة.

نفض ذريته على حواري سرور، قد يصادفونك كثيرا في مرورك، ربما سيتجنبون الدرب التي تسير عليها.

***

عينك على ارتفاف النخيل فوق رأسك..

عزّت عليك ضاحية الهناقرة، تحدّوك، وكنت تريدها بأي ثمن، من يطلب عزا لا يبخل بالمال، وقد أردته بقوتك التي شمخت بتكدس ما تملك.. سوى روحك، بقيت على انكساراتها، خائفة مترددة، حلّقت كثيرا فوق ضاحية الهناقرة، لم تبارح عروق النخيل التي سمقت وتجمّلت، ازدانت بالليمون والأمبا[5]، أردتها "عزوتك" وعزاءك، منعوك دونها، قالوا لن يشتريها غريب عن قبيلتهم، الشيك المربوط بعناية في طرف مصرّك لن يكفيهم، لا تعرف سرور كم تملك إلا ما فوق ترابها، "الضاحية" الفلانية اشتريتها، وأخرى فسلتها، وثالثة وعاشرة، وهكذا يمضون في الحساب، لا يعرفون عن السحّارة الكبيرة المكتنزة برزم الريالات، لا يحدسون بمقدار أموالك التي تكاثرت في غفلة عنهم، لا يقتنعون أنك من سلالة البيت العود، البيت العود لم يعد هناك، كما لم تعد سلامة بنت يحيى تملأ الشويرة بحضور مبهر..

غيّبت سرور حكاياتها عن سلامة بنت يحيى ورصاصتها في قلب الضبع تحت الغافة، حتى الشويرة نسيت شجرتها، تناسلت كثيرا، وضيّعت ذاكرتها أكثر، فتناست.

---

(5) الأمبا: شجر المانجو.

في السبلة متّسع لك، تجلس إلى صدره، كأي قبيلي ثري، تردم الهوّة السحيقة بين حياتين، بين ذاتين، بين عرقين للأسلاف ورثتهما معا، وأورثوك واحدا، اختاروه كما اعتادوا، وأنت راغب بالتبرء منه، تعيد الحديث عن اليوم، والغد المنذور لما لا تقدر عليه، حياتك على الحافة، قدرك أن تعيش على الحواف أبدا، حواف الذاكرة، حواف الحياة، حواف الموت.

تتلفت من حولك، تفرقت الذرية، وغرقت السلالة في مسارات التيه، كأنه نذر عليها حملته في جبينها سلامة بنت يحيى يوم أن جاءت إلى الشويرة رغما عن ذاكرتها، والشويرة على مرمى حجر منك، لكنها بعيدة عنك، هي أقرب مما تتصور، أبعد مما تحتمل.

لم تزرها منذ أوبتك تاركا مهجرك قبل عشرات السنين..

كأنك تترقب المرأة الغريبة تأتيك لتقودك إليه، لم تكبر هي، ولم تمض السنوات، ولم تكبر أنت، لا زلت الطفل الذي تصادفه أمام باب البيت العود، تحتضنه، وقد تلقمه صدرها ليشرب منه السائل الذي لا يشبه طعم الحليب، تحسبه ماء الحياة يتدفق من ثديها، منحك عمرا أطول مما تمنيت، في لحظات كثيرة تود لو أنه لا يستمر، وعليه أن يكف عن فعلته هذه، ويتركك تلحق بسابقيك.

ذات مرة رأيت المرأة الغريبة تهمس في أذن جدتك (العودة) سلامة بنت يحيى، سألتها عن هذه المرأة، كأنها بوغتت بمعرفتك لها، قرأت ذلك في وجهها.. انسحبت كأنك لم تر شيئا، ولم تسأل.

أعيد عليك ما توارى من سيرتك، ومسيرتك..

في البيت العود ظل المرأة الغريبة لا يزال، يتفقد ظلال الحكايات القابعة في زواياه الخربة، لو سرت إليه قد تجد المرأة هناك، شيء منها تحتاجه.. لا شك.

تود لو تتتبع خرائط روحك العتيقة، تستعيد الشويرة في ألواحها ولوحاتها، العرشان المضويّة بقناديل باهتة، والليل سكون مثقل بالرهبة، بالموت المتجوّل بين العريش وما يجاوره، بكاء الأمهات الثكالى على أطفال تركوا الحياة ومضوا إلى مقبرة الحارة، كان الشايب حمدان يتجوّل أيضا يقرأ كلماته الغامضة على الأطفال المرضى، ويكتب حروزه تعلقها النساء على أعناق أطفالهن، وتسير زوّان، بيدها آلتها الحديدية تلهبها بالنار فتكوي بها الجلود الواهنة بالأمراض، لعل (الوسم) يذهب الشر بعيدا عن هؤلاء.

لم تر الشويرة وقد تحوّلت عن تلك المكتنزة بالحنين والشجن في ذاكرتك..

تلك حارتك، لا تحتفظ إلا بالصور القديمة، بـ"البيت العود" وساكنيه، الموتى والأحياء، تعرف مسار الموتى، ولا تدرك أين تفرق الأحياء، وحدك تعيد سيرتهم الأولى، أما الأموات فتعرفهم الشويرة واحدا واحدا، قد تتخيل أنها تعرفهم، علاقتها مقدسة مع مقبرتها، تدور في حياتها لتبلغ أقصى حدود الأشياء، وأقصاها السير نحو المقبرة المجاورة، كأنها امتداد طبيعي بين الحياة والموت، لا تبعد عنها، تحاذي بيوتها حدّ الالتصاق..

في مواقع عدّة تلتقي سرور بمقابرها، في الشريعة مقبرة، في الشويرة مقبرة، خصصوها للأطفال، في حارة الحجرة مقبرة، أينما تذهب تجد مقبرة، كأنها تخشى أن يأتي يوم على مساحات أراضيها لا تجد لموتاها بقعة تدسّهم فيها.. علاقتها بالموت لم تتغيّر، حتى وهي تزفّ حياتها المعاصرة بين أيديها ساعات الليل والنهار.

سرور لا تضع حدا بين الحياة والموت، تعيش على الحياة على وقع صوت الموت، وحينما تودع موتاها تقول إنها رأتهم في الليالي أحياء يبحثون عن لقمة، فتصب اللعنات على السحرة المتربصين بحسد مميت.

لم يبعد الزمن كثيرا، اختنقت سرور بزحف الأسمنت، بقيت المقابر وحدها تنأى بموتاها عن حفرياتهم المتكررة، في الليل كان أحدهم يمدد أرضه إلى مقبرة تجاوره، رمى عظام الموتى بعيدا، وكلما مات عليه ولد قيل إنها لعنة الموتى، كل عظم ميت يطلب نذرا من عظم حي.

***

أثقلك العمر، وأثقلته، تحمل على كتفيك ما لا يحصى، ذاكرات متعددة انثالت عليك، راهنت على العمر لتتجاوزها، لتصعد عليها وتكبر، تسمق أكثر كما تشتهي، لتكون من سلالة سلامة بنت يحيى، لا من سلالة ابنة خادوم، إنما العشق المجنون أيها المكابر، لعنتك الأبدية، سرق منك عمرك، مع أنك تمددت فيه نحو مائة عام، أو يزيد، ليس بيدك أن تحذف من ذاكرتك ما لا ترغب فيه، خلقت ذاكراتنا لتقتص

منّا، تنتفض في الوقت الذي تشعر فيه أننا بدأنا بالتسلل خارجها، تنقضّ بمخالب من نار، كأنما فرحتها في نكباتنا، واسترجاعها بألم.

عشق جدك يتعملق في شرايينك، كأنك قادر على سحب حكاية عشقك من أفواه سرور، أو على الأقل من ذاكرتك وهي تسترجع رابعة فتتوجع، وتتذكر حملها فتنهار عليك جبال أحلامك.

جرّب العيش مرة واحدة خارج حدود ذاكرتك، الذاكرة الملعونة التي تثقلك أيها المكابر، ولدت من أب وأم تعرفهما، أحبّوك في طفولتك، لكنهم حملوا لعنة البيت العود وتشرّدوا حيث شاءت لهم اللعنة، لم يهنأوا بالبيت العود، ولا بحضور سلامة بنت يحيى، أبوك لم يعرف حنان الجدات على يد جدته سلامة بنت يحيى، كانت كائنا مختلفا، يمضي بثبات على سلالم البيت العود، تثب في خفقة قدم بين طابق وطابق، لمرورها عبق مسك، ومهابة لا تحتملها الأبدان.

لم تجرب العشق لتدرك الجمر إذ تلظى به جدك، كنت مشتري جسد لا أكثر، وهربت عن أنثاك، بينما جدك هرب إلى أنثاه، لم يتخل عنها، فارق البيت العود وسار إلى "عريش" خادوم، متتبعا رائحة ابنته الصاهدة بأنوثة أحرقت كبده، تنازل عن عرش البيت العود، عن مجد سلامة بنت يحيى، المرأة التي تشير لفلج الحيلي فيغيّر مساره إليها متخذا من سراديب الأرض منافذ ليصل إلى حيث تريد..

لكن مسار العشق أقوى من جبروتها، جداول قلب جدك عصية على قدرة بنت يحيى، صمتت، كان كبرياؤها يمنعها من التدخل في توافه لا

تليق بامرأة قدّت مشاعرها من كبرياء، كأنها لم تخلق من ذات الطين الذي خرج من رحمه أهل الشويرة، وأهل سرور وأهل الأرض.

مرّت عشرات السنين تتبع بعضها البعض في متاهة لا تحصى من الأعوام، وناره لا تزال تّتقد، أدخنته تتكاثف في روحك، كجذع نخلة إذا خبت النار فيه تبقى تأكل عمقه فلا يظهر منها إلا الدخان.

تأخذ طريقك يسارا، التفاتا إلى السوق القديم، عرفته قبل ما لا يحصى من الأعوام، منذ أن كنت طفلا لم يبلغ السابعة بعد، رسمت خرائط دكاكينه واحدا واحدا، وعندما عدت وجدت ذات الخرائط، لا تتذكر أسماء من كانوا فيه، رسمته من جديد، كنت شاهدا بمرورك اليومي في خارطته، خرائط الناس قبل الأرض، ليس إلا بضعة دكاكين تتناثر على الساقية تحت أشجار الأمبا، تكسرت الأعوام عليه، غادروا جميعا، تساقطت الجدران، بين رحيلك وأوبتك خيوط كأنها من ليف نخلة.. وقد عرفتها أصابعك كثيرا تحبك ضعفها فتكبر حبالا، فتكسب مالا في كل دقيقة تمر عليك، حين عرفك الفجر مستيقظا تذرع النخلات بحثا عن (رقاط)[6] تبيعه لاحقا طعاما للمواشي، وعن فرصة كسب تلقي بها سرور في أزقتها، عن سعف النخيل اليابس تصلحه فتتبتل أصابعك من خلاله تصنع السرود والوصلان والسفيف، في كل سانحة تملأ يديك بالتراب لتحوّله تبرا، وتغزل الليفة فتغدو ريالا.

تجلس على الساقية انتظارا لموعد السقي بالفلج فتتحرك أصابعك

(6)الرقاط: ما يتساقط من حبات ثمار النخيل فيصلح لإطعام المواشي.

كسبا للوقت على الخوص تلفّه كي يزهر على يديك ما يمكنك بيعه، في مواسم القيظ تتبع الطناء[7] لتجني الرطب والتمر، وحينما يتكدس التمر جرابا فوق آخر ستجد من يشتري منك قواطي الدبس، على كل أصبع في يدك أثر، على معصمك أثر حبل تعلقت به لتنجو من سقطة كادت تقتلك، تمنيت أكثر من مرة لو أنه انقطع وتركت حياة تؤلمك، لكنك عصي على الموت، ترى الأعوام تتكدس على جبينك، مات من مات، وبقيت صامدا في وجه الفناء، ما تريده يفنى لا يفنى.

أكثر من قرن من الزمان تجره ببساطة متناهية، كأنه لا أحد من سلالتك سواك، كأنه حضور سلامة بنت يحيى يخفيهم ليظهروا جميعا دفعة واحدة ذات حين من الدهر لا تتبيّنه، معهم جدك الأول الذي لا تعرف سلالة قبله، الرجل الذي حسدته سرور قبل أكثر من مائة وخمسين سنة لأنه يضاجع سلامة بنت يحيى، الملكة القادمة من غيوب يجهلونها، لكنهم يخشون التساؤل عن هذا الذي يضاجع بنت يحيى..

لا تتذكر سرور التي تعرفها الآن سويد الذي وقع لسانه في فمه فغص بها، بقي حيا لكن لا لسان له، همس في أذن الشايب حمدان أن سلامة بنت يحيى هي التي تضاجع زوجها وليس هو من يضاجعها، ضحك الشايب حمدان بقوة وأخبر بقية الجالسين على جدول الفلج أمام دكان سعود بن سليمان بما أضحكه بقوة، كان على سويد أن يبكي ابنا أو حبيبا سيفارقه لأنه أضحك مجالسي السوق عن شيء يخص بنت يحيى.

(7) الطناء: عملية بيع ثمار النخيل بالمزاد العلني قبل أن تحصد.

تترك الحكاية وراءك تتبع مسيرك، تخطط لشراء ضاحية أولاد سليم، لديك آلاف تكدست وعليك واجب البحث لها عن صفقة، لترفعك أكثر في هذه القرية التي لا تريد تذكر أنك من سلالة البيت العود.

من بعيد يلوح خميس الرزاف، تخفق روحك بشدّة، يصل إلى حيث تسير بك خطاك، يمد يديه يصافحك، لست متأكدا أن يديك ارتفعت لتمسك يديه، التقت أعينكما طويلا، انسابت دمعة حارقة على خدك، تركتها تمضي إلى موطئ قدمك، وتركك سليّم، تتبعته بما تبقى لك من نظر، لسانك قابع في حلقك، نسيت صوتك منذ أن بدأت الصوم عن الكلام.

يصلك صدى رزفة يأتي من أقصى حدود الوهم..

الصوت النازف بحرقته في الليل، وحزّ حبل الطبل على يدك، بأثره الباقي تمسح الدمعة النازفة على خدك..

أين يد الغريبة عندما مسحت عن وجهك دمعك؟!

جاءتك يد من البعيد، كأنها الحلم، ومسحت بلحافها المبخّر وجهك، مسحت التعب والدمع والانكسار، ومضيت في دربك.. موقن أنها يد المرأة الغريبة، أمك التي أرضعتك من صدرها، هي أم لا تنسى، ولا تموت.

***

تعزّي نفسك بتأمل النخيل من حولك، ممالكك التي كافحت

لتمتلكها، لكنك أمام انكسار روحك.. فقير، أفقر مما كنت حين أبت من البحرين، بقيت سرور سكنك نحو أربعين عاما عرفت فيها البحرين ولم تعرفها، تغذي أخيلتك أغنيات سالم الصوري ومحمد سلطان المقيمي، تستمع لمحمد زويد فتتخيل أن الشجن قادم أيضا ليغذي حنينك إلى سرور، تزيد من حدة الشجن وأوجاع غربة أردتها عاما أو عامين فإذا بها تمتد أربعة عقود، حلمت بسكنى البيت العود حين تعود.

.. والبيت لم يعد بيتا، كأنك نسيت روحك هناك، فتساقطت الجدران عليها، أينما يممت في غربتك لم تجد تلك الروح الشقية، سافرت بدون روح، عبرت البحر في فجر يوم قائظ، لم تنتبه، وأنت الفتى الصغير الراكب البحر أن روحك أبقيتها في الشويرة، وأودعت مكانها حنينا للمكان يستنزفك، نخيل البحرين يحفز ذاكرتك على الاندفاع أكثر صوب وادي سمائل حيث الضفاف نخيل يتمايل، تشبهها نخيل الغربة في الشموخ، لكنها لا تعطيك الحب الذي عرفته من نخيل سرور، تتسلقها طفلا، وتعود حينما تشاء إلى البيت العود، تحتضنك رائحة جدتك (العودة) سلامة بنت يحيى، حتى وقفت كتمثال جامد نظراته أبعد مما تتخيله حينما كنت طفلا لا تفقه أمر تباين لون بشرتك عنها، أنت المأخوذ بالبحر، بميناء مطرح يحملك على خشبة تتبع والدك إذ يحاول التأكد من أنكم في أمان من الماء الممتد حدّ الشوف.

لم تأخذك البحرين إليها وبقيت غريبا، رغم أنها أخذت منك ما

يقارب نصف عمرك.. وعدت، ووجدت الغربة بانتظارك.. الغربة الأولى اخترتها، تبدو واضحة لك، في سرور كانت غربة أشد إيلاما تنتظرك، لم تتوقعها، بدت لك البحرين وطنا.

لا قيمة للسنوات حين تحسبها الغربة، العمر فيها مجرد أيام تتوالى، وتتكدس على بوابات الأمل بالعودة، التقيت من سحبهم الأمل عشرات السنين، وكلما حلّ فصل قالوا في الفصل القادم سنعود إلى عمان، في العام المقبل سنركب السفينة ونعود، وتحل فصول، وتنفلت سنوات، وتمر مراكب وسفن، تأتي بقادمين آخرين، وتذهب بمتعبين لا يأبهون بما وراءهم، يشدّون مأزر الكفاح ويعودون..

في الوطن ثمّة ملجأ.

اشتقت لترى السيح الذي حدثوك عنه كثيرا، وفتشت عنه أكثر بين تلال الذاكرة المتداعية برمل الطفولة، المتدثرة بجمال مكتوب بعين طفل يشاغب التربة فتقربه إلى الأرض أكثر، اليوم لم يبق السيح فراغا يسوّر بيوت الشويرة كما وضعت الطفولة صوره في خزائنها، البيوت الأسمنتية وقفت على أعتاب الجبل الشرقي، أما الغربي فحماه الوادي عنهم، وقفوا في البناء عند حافة الوادي متخذين من الجسر ملاذا من المياه المتدفقة في مواسم السيول.

في البحرين كنت ترقب مطرها، كل سحابة تلوح في الأفق البعيد تظنها تلقي زادها على قريتك البعيدة، تسقي وادي العق فيسيل ماء الحيلي بغزارة في سرور، تعبت روحك من الجفاف منتظرة سقوط مطر

يبدو أنه نسي سرور طويلا، طالت سنوات المحل فوق قدرة أحيائها على الاحتمال، لكن لا مناص من الصبر، تقاسموا حبات التمر، جاعوا وعطشوا، بعضهم بقي على أمل الخصب، وكثير منهم غادر، منسلا إلى داخل عمان باحثا عن نبع ماء، أو خارجها، مفتشا بين أنياب الشقاء عن لقمة طعام.

فلج الحيلي بقربك، شق الأوائل جدوله بمحاذاة الطريق الواسع وسط سرور، دارت الأفلاك به وعليه، بين خصب ومحل، والناس بين قدرين، يفطرون على إيمان بأن مع العسر يسرا بعد العسر يسرا، وينامون على دعاء.

فاجأك ساعد بن علي بمروره، غائص في متاهته، فلا تقترب منها، يشير إلى النخيل ويتمتم، كأنه يناجيها، يحوم حول بعضها، يشير بأصبعه ويهز رأسه كمن يأسف على مجد زائل، مجدك بين يديك لكنك لا تراه، أو أنها الشويرة وجميع حارات سرور لا تريد أن تراه، صنعت مجدك بالمال، أغنى من الشيخ، لا يضاهيك أحد فيها حين يذكر الثراء، وأنت سليل البيت العود، لكن ملامحك لم تنحز للسلالة التي هبطت إلى الشويرة ذات خيال مجنح، أسرتها أسرة بيت خادوم، لاحقتك باصمة مسارك كلعنة أبدية لا فكاك منها، وواصمة خطاك بلطخة سوداء تعيث ألما في الشرايين الحاملة جيناتها.

كأنك سمعت ساعد بن علي يقول لك شيئا، لم تتبيّن كلماته..

وكأنك قلت له شيئا، لم تتأكد أنه صعد من روحك لينطق به لسانك.

تبادلتما النظرات، ومضى كل في سبيله، يتبع شيئا ما.

سرور لا تتسامح، تتوهم أنها تنسى، وأن ذاكرتها ضعيفة، وأنها لا تدلع لسانها ساخرة لخطأ يحمله هذا وخطيئة تثقل تلك، جسدك متخم بألم الخطأ والخطيئة، تود لو تعيد الأشياء إلى مواضعها، إلى جريان العقل.

اقترحوا على أهلك (باصر) يشفيك من حالتك، تنهض منتصف الليالي مباغتاً بشيء ما، وتسهد حتى الفجر، الباصر على مقربة من بيتك، لكنك عنيد، تعرف سقمك، ليس كما يقول الباصر[8] أن داخلك جني لا يخرج إلا بالسوط، يريد أن يضربك هذا (الغبن)[9] كما وصفته، وعندما هدأت نوبة غضبك آلمتك الكلمة أكثر.

قفزت على عامد الفلج، كالظبي الجريح، أثقلتك سنوات عشر عرفت فيها طفولتك في سرور، تتمدد وتتكدس بعضها فوق بعض، سنوات عشر أطعمتك حلوها، وأبوك يقول إنها حقنتك بمرارة أزلية، وأثقلك ما هو أشد وطءًا منها.

على جدار "الجنتين" أسندت ظهرك، وتنهدت بعمق كاد يبكيك، لكنك لا تتذكر متى بكيت آخر مرة، حتى وأنت تتلوى جوعا بانتظار أن يأتي أبوك بما يؤكل في مهجرك.. لم تبك كبقية إخوتك، كانت الدموع تنساب دون حاجة للبكاء، وكنت تتناول ما في الكيس الآتي به يد

(8) الباصر: المعالج الشعبي.

(9) الغبن: ابن الحرام.

والدك بصمت، تشبع قليلا، ثم تمضي بقية الوقت تحت ظل شجرة ساعات طوال كأنك تمثال باهت نسيه ناحته أو تبرأ منه، تسترجع ذكرى بضع سنوات أسقتك فيها الشويرة لبن محبتها، وعلمك البيت العود ما معنى الحنين.

***

في مقتبل رحلتك للغربة كنت لا تعرف شيئا سوى البيت العود وما حوله من بيوت الشويرة القليلة، وصولا إلى عريش راشد الراعي في بدايات السيح، أمامه منطلق السرح، تتجمّع نساء الشويرة صباحا بمواشيهن وتأخذهن التي عليها الدور إلى قريب (سرّوه) متجاوزة الوادي، وبعد أن يجتاز الضحى مساره تعود الراعية إلى حيث السرح، الأغنام والماعز تعود إلى البيوت وحدها، قد تظل إحداهن متتبعة خطى كبش ثائر أو تيس مكتنز بخصوبته، وقبل أن يحين الليل تكون صاحبة الماشية الضالة قد عادت بها إلى البيت إذا لم يكن ذئب أخذها إلى لاعودة.

كنت تقف على السرح تراقب المشهد الصباحي، وتود لو تسير مع الرعاة إلى حيث تتخيل مرورهم، لكنك من بيت سلامة بنت يحيى، عار عليك إن فعلت.

***

.. وعشت أسير البيت العود، وارتحلت عنه كما يشترط على ساكنيه..

حملته على ظهرك أيام الشقاء في البحرين، بقي مفتاح العودة يكبر

معك هناك، البيت العود ستعود إليه، في خلواتك تتخيله، ستهبط عليه كما هبطت سلامة بنت يحيى في زمن لا تبقيه الذاكرة مرصودا بعناية، الأبواب إليه موصدة أيها الآتي بجوعك وحلمك، يكبر جوعك فيتضاءل حلمك، ويصغر فتهبط عليك أحلامك دفعة واحدة، عاهدت نفسك أن تعود إلى منابتك الأولى، إلى خطواتك المنسية في ذاكرتك العتيقة، عبورك فوق تراب حنون، تراب تأتيك روائحه برائحة طلع النخيل، أو تلك الصاعدة من أرض يفترشها فلج الحيلي بمائه المنساب في أزمنة الخصب.

حلمت بالعودة لتكون ابنا من سلالة سلامة بنت يحيى، هذه التي تعاظمت داخلك كجبل مقدس، رأيت في نفسك أنك من أحفاد الأسطورة، هناك سوّرت ملامحك بسور المكان فلم تتبيّن فوارقها جيدا، ابن العشق القديم وكان دفترا ينثره عمانيون كثيرون في دروب البحرين وحاراتها.. ويتجنبه والدك.

هل كنت تتخيل أم أن المرأة الغريبة كانت تأتيك هناك في البحرين؟ تعبر بك دروب المنامة، وتأخذك إلى الرفاع، تسرد عليك حكايات أبناء وطنك إذ يسفحون ماء أشواقهم على رمال الشاطىء، فيختلط الدمع بماء البحر، تلتقي ملوحة هذا بملوحة ذاك، ويرون الوطن من خلف زجاج الدمع وخلف لمعان الماء أمامهم.

أخالك قادر على البقاء لأن الغريبة معك في غربتك، كنتما غريبين، لا أنت تدركها جيدا، ولا تدرك كما تبقى أمامك من غربة، تأكلها، أو تأكلك.

- يا أبتي ما هي الحكاية؟

- أية حكاية أيها الشقي؟

- جدي وعشقه!

- خير لك أن تنام، ألا تمل من هذه السيرة، ألم يتعب عقلك من سؤال مكرر جربته مرات ومرات ولم تجد إجابته عندي؟!!.

- لكن سرور تناديني، ولا أكاد أتذكر تلك القصة، حينما كنت في البيت العود أخذتني طفولتي، فاعطني ما فاتني.

- النوم سينسيك كل الحكايات، والبحرين ستعطيك حكايات بديلة.

- لكن لحكايات سرور مذاقها المختلف.

- جئت من هناك طفلا، فما لك والتذكر!.

- إنما روحي هناك، لا زالت في البيت العود.

- وهذا ما خفت منه كثيرا وطويلا، وسأبقى، عشر سنوات فقط من عمرك أمضيتها في البيت العود ووهج سلامة بنت يحيى، كيف بي أنا؟

- يا أبتي، عودت نفسك على النسيان، ولي ذاكرة قوية تأبى إلا التذكر.

راهن والدك على غربته وعملكما معا طول النهار تحت إمرة المقاول الفلسطيني الفظ ليدفن الأمس، ويسحبه من تحت جلودكم، يدرك أنه مندس هناك، إخوتك انسلوا في سوق البحرين يعملون متى ما وجدوا

للعمل سانحة من رزق، حمالين وباعة جوالين ودلالين، ووحدك بقيت تتجول بقميصك الأخضر بين نخيل سرور، تحوم بخفة الطفل حول الغافة، لم يخبروك أن جدك وصل ذات نهار إليها بعد سنوات من الغياب، وراءه جدتك بنت خادوم، وحوله أبوك وأعمامك، وعمتك عائشة، في لحظة نادرة رأت الشويرة وبقية سرور سلامة بنت يحيى.

كان طيف المرأة الغريبة يأتيك، حتى في صحواتك على ظهر السفينة السائرة بين الماء والماء، أبوك لم يرها، ولا يصدق أنك تراها.

ركبت سفينة الإياب على غفلة من أبيك، كما غافل جدك أباه.. وغاب، وأنت غافلته لتعود إلى سرور وطفولتك التي أضعتها بين بيوتها ودروبها، مخبئا تحت مصّرك خمسين عاما، قليلها يعرف سرور، وكثيرها لم تخضر فيه إلا أوراق ذكريات سرور.

لكن لا مناص من اتخاذ طريق الإياب، جدك عاد إلى سرور، وأنت اتخذت طريق الأوبة، كما هي طريق التوبة، وقد أذنبتم حينما ارتحلتم، تتشابهان في أنكما عدتما إلى منبتكما القديم، تتخذان من ماء فلج الحيلي شرابا لا حيلة لشاربه سوى العودة مرة بعد أخرى، من يهجر سرور لا بد أن يعود، سرور لا تُهجر، قريتك الأثيرة، بيتك الواسع، جنتك الأرضية، كم من نخلة غرست شوكتها في جلدك فكان دمك على خضرتها تعويذة عشق لا ينفك أثر سحرها.

ترقبت عودة أبيك عاما بعد عام، موقن أن الإياب قدر محتّم كما الذهاب، وأنك لا محالة راجع، طالت الغربة أو قصرت، إنما عبء

العشق على أبيك يبدو أكبر مما تظن، وتتحمل، كأنك الاستثناء، قدرك مع سلالتك الآتي منها وعبرها أن تكون الغربة قدركم جميعا، غربتكم في داخلكم، وعن بعضكم البعض، لا تتوقع أن أباك لم يزل حيا، إنما لسلالتك قدر الغياب وحده.

جئتها، سرور، من حيث لا تتذكر، وعدت إليها كأنما بوغتّ بعدم قدرتها على التذكّر، وحدهم، بضعة نفرٍ يتذكرون، ويثقلون روحك بالذكرى..

في كل جدار نقش ما، حكاية عبرت، والدروب تفتح أذرعتها للأحياء، كما هي دروب للأموات أيضا، حينما يعبرون الذاكرة صوب المقبرة القديمة، كل قبر فيها يعيدها للحياة أياما قلائل، ثم يستعيد القدم مسيره مستأنفا ترصده لأشباح الحارات، حارة الشويرة وما جاورها، شمالا باتجاه البندر، جنوبا باتجاه أودية العق، القادرة وحدها بجريانها في زمن الأمطار الغزيرة على تحريك ينابيع الماء في سواقي فلج الحيلي.

لم تلتفت إليك سرور كما توقعت، الفتى الراكض ببشرته الداكنة الذي يقول إنه من سلالة البيت العود تذكره قليلون، ولم ينتبهوا له.

أي بيت عود؟! تساءل جيل عن أمسك، أشار كبار السن إلى خرابة تتوسط الشويرة، هزأوا بما رأوا.. ومضوا.

***

أخذك الدرب إلى التفاتة مغايرة، لا تسير نحو بيتك في خط مستقيم، تحسست الشيك المندس في طرف مصرك، جئت به من مسقط ليلة

البارحة، لا أحد في سرور يعرف ما تملكه هناك، حكمتك الأثيرة ترددها فلا يلتفتون إليها، الريال يأتي بالريال، والفقر يتبعه فقر، أطلقت حلمك بالريال الأول، دسست لونه الأحمر بين يديك وكدتّ تبكي، ناولك إياه عبدالله بن حمد أجرة خدمتك لنخلة من نخيله، تمايلت حتى كادت أن تسقط، عاونته، لك قوة بدنية متأصّلة، تفجّر نموّها يوما بعد آخر.

جاء الريال بريالات بعده، والمئات بآلاف فوقها، أيقنت أن الأحلام ممكنة، وأنك ستكون سيد سرور بأملاكك، ستكون لك جنة نخيلك فلا تعمل عند الآخرين، ستخرف نخيل ضواحيك وتجدّ عسوقها، لن تكون أجيرا لدى أحد، أيقنت أنهم سيعملون أجراء ذات يوم تحت إمرتك، سيخدمونك فيه لأنك من سلالة البيت العود، لكنك لم تجد إلا عاملا بنجاليا ستستجلبه خادما لنخيلك، يأتي إليك بالرطب ويغافلك ليبيع أكثره في سوق فنجاء، تصرخ في وجهه، ويتمسكنُ لك طويلا، تفرح إذ يقبّل يديك فترضى عنه بانتظار وشاية أخرى تصلي جمرات غضبك عليه حينا آخر.

أولاد عبيد لم يعودوا بحاجة إلى ريالاتك أو ريالات أحد من أغنياء سرور، توزعوا على وظائف كبرى، في الوزارات والجيش، يعبرونك فلا يلقون حتى السلام عليك، ويمرون بسياراتهم الأنيقة فلا تكاد تعرفهم.

- ناصر بن عبيد صار مسؤولاً متقدماً في الدولة.

- ود عبيد؟!!

- الزمن تغيّر، والناس سواسية.

- لكن...

- الولد متعلم، ومجتهد.

- بس... ود عبيد......

- أحسن لك تشوف نفسك وتسكت.

ستتبع آثار البيت العود.. إنما...

لم تعد سرور تتذكرهم جيدا، أشرفوا على حافة النسيان، بل سقطوا فيها، في قاع روحك اجتمعوا هناك، تظنهم حينا أنهم انتهوا، ذهبوا إلى غير رجعة، لكنهم فجأة يحيون داخلك مرة واحدة حينما تريد أن تحذفهم من ذاكرتك للأبد، يتظاهرون أمامك بالنسيان وهم مزروعون في وجهك، أحيانا لا تدري ما المشكلة أن تكون كما لا تحب، أن لا ترى فيك إنسانيتك الحرة، تطلق عذاباتك كلما تحسست ملامحك بعين الضغينة والضعة، كل هذه النار توقدها في روحك، وتشعر أن الآخرين يصبون الزيت عليها كلما خبا سعيرها..

تلك معضلتك..

معضلة من يقف على حواف الأشياء، ولا يروم بعدا نحو أمان روحه..

على هاوية بين هذا وذاك، كأنهما جدولا ساقية فلج وجودهما ضروري ليسير نحو الأرض يسقيها، وأنت تفتح الجداول حتى تمر مياه النار

تحرق أراضيك شجرة بعد أخرى، قادم من زمن فواصله عسيرة، ومربكة ومؤلمة، تتقاطر عذاباتك أسماء من الأمس البعيد كانت تركع بمذلة أمام أسيادها، مغموس أنت في أَمْسِك حدّ الغرق.

يأتيك مبارك، يقبّل يديك، يناديك بلقب تحبّه، تتحسس جيب دشداشتك، تعطيه ريالين، يكثر من التودد إليك، وإلحاق نفسه الذليلة بعزة البيت العود، تعطيه ريالا أكثر، شيء يسعدك هذا الصباح، تودّ لو أن عبدالله بن خلف يرى مشهدك هذا مع مبارك، يقبّل يديك ويمضي بدعاء، تتحسس بأصابعك المرتعشة جيبك، وتمضي بخطواتك البطيئة كأن الدرب يسقط من تحت قدميك، بصرك لا يصل إلى المسار الذي ابتلع مبارك من أمامك، لكن ما تبقى من بصيرتك يقودك إليه، سلالته التي عاشت منذورة لسلالتك، لا يزال مبارك وفيا لك، ولا تدرك أيها المكابر أن أولاده تمردوا عليه، غضبا هائلا من مسكنة عبودية لم يعد في الزمن متسعٌ لها.

- أبوكم إنسان متواضع.
- أبونا ما يزال على ضلاله القديم.
- كيف؟!
-الله تعالى خلقنا متساوين.
- لكن..
- نحن أحرار أمثالكم جميعا.
- لكن.. تواضعوا قليلا.

***

البيت العود واقف في الشويرة كجرح عتيق، وأنت تداري ما طلبه الشيخ منك، البيت العود غادره سكانه واحدا تلو الآخر، الجن الآتون في إثر سلامة بنت يحيى قذفوا لعناتهم الواحدة بعد الأخرى ومضوا.

تآكل ساكنوه، وتفرقت بهم السبل، وحدك تنثر الملح على الجرح لعله يبرأ من علله وقد أعيتك أضمدة الزمن.

في البحرين تحسست كل شريان فيك، شعرت بها تتجول بمحبة في البيت العود، بعد عقود من العمر يطلب الشيخ موافقتك على بيع البيت، لم يعد قابلا للحياة بين بيوت الشويرة الاسمنتية، استدعيت والدك أن يأتي ليرى، أن تأتي سلامة بنت يحيى لتسمع، تتدخل وتقف في وجه الشيخ، لتعيد إليه زخم حضورها، هيبتها، والدك يغوص في مهجره البحريني.

- يا أبتي، الدرب طويل.

- اختيارك.. فاسلكه.

- سرور ليست كما رأيتها.

- تلك عين الطفل، وهذه عين العقل.

- أرشدني.

- لا تتلفت كثيرا.

- لكن خلفي يركض ماض.

- وحدك من أثقله، هو خفيف، كليفة سقطت من نخلة.

- وأنت؟.

- حمله عليك ليس كحملي، وحدك تنوء به.

- ماذا أفعل؟

- أنزله من على كاهلك، وامض، لست مجبرا على حمل الثقل، هذا اختيارك، انظر إليه بعين أخرى.

- لا أستطيع.

- إذن تعذّب به ما شئت.

***

.. ومضيت تلف على عنقك حبل عذاباتك.. حبال الليف التي تصنعها تتحول في كآباتك إلى أفاعي تلتف حول أجزاء جسدك، تقرأ عليك زوجتك ما تحفظ من سور القرآن، وأنت تتلظى في حمّاك، وتهذي عن المقاصير التي اشتريت، والأخرى التي أعجزتك.

كأني بك رأيت غمزة العين في وجه عبدالله بن خلف، يغمز لونك الداكن الذي ورثته منذ جيلين، لكنك تضرب صدرك كالعادة "أنا قبيلي" وتكرر"الله يسامح جدي ويغفر له" وأنت حاقد على جدك كثيرا وطويلا، تحتقر عشقه القديم الذي أورثك لعنة شقيت بها، كما سيرثها أبناؤك من بعدك، دفنت غرامك بذلك العشق وإعجابك المتسامق حيث كنت هناك وألوان البشر تتعدد دون كبير قيمة، تكرر كلمات على لسانك لا

تصل قاع روحك، تتمناها تهبط على جمرها كحبات برد في نهار ممطر بغزارة على سرور، لكنها تبقى كهبوب الغربي في قيظها اللافح، مع أنك تترقب القيظ لتأتي النخيل بخيراتها وتتراص الريالات في سواقيك، إنما قدرك هكذا، جمرك المتقد لا تبرد حرّ ناره الريالات مهما تكاثرت.

قاسية ذاكرتك على عشق جدك، لكنها تجتهد لسوق أعذار عن حكايتك عن رابعة، جدك انتصر لعشقه..

- تزوجها على سنة الله ورسوله.

- لكنهم يقولون أنه كان يلتقيها قبل الزواج.

- لا تصدق كل شيء.

- يقولون إن جدتي حملت منه فسترها.

- لا تصدق، وانظر إلى طريقك، مرّت عقود تتبعها عقود.. وأنت تحمله وزرا لست واثقا منه.

تضع الغمزات الجمر على الروح مباشرة، تكويها، ولم تعتد الكي أيها المثقل بذاتك..

لا يسمع أحد ما تبوح به لدواخلك، الكل يعرف أنك قبيلي، لك أصل، لك حسب ونسب، تتوهم أنهم سمعوا ما أفضيت به إذ صرخت بكلمة قبيلي، لكنها لا تصل إلى أسماعهم، لأن الصوت لم يغادرك أصلا.

لو بيدك تفقأ عيني عبدالله بن خلف، لو تسحب لسانه لتفتته بين

حصاتين، أو تفقأ العين التي غمزتك، كم تمنيت لو أنه يختفي من الوجود، لو أن سبلة سعيد بن سالم تسقط على جميع من فيها، ستتحطم ذاكرة ضخمة في قلب سرور، لن يغمزك أحد، ستسقط الحكاية في بئر النسيان، ريالاتك وحدها تتكلم، ستعرّفهم ابن من أنت، حدثت نفسك بالأمر كثيرا، تكرّره وتعيده في ذاكرتك، العاجزة عن تذكر كل شيء، فتشت طويلا عمّا فاتها بين ثنايا الحكاية، تعيد ترتيب الأشياء لتناسبك، لكنها أعقد ممّا تبتغيه، ذاتك لا تراها إلا على حواف السماء علوّا، لولا أنك معذّب بأمس، هو ليس أَمْسَك تماما، لكنك تسقط في قاعه كأنه يلامس أطراف ملابسك ليثني ذاتك عن طول السماء.

هل ماتت رابعة؟ وأين وضعت حملها؟ وأين هو ابنها الآن؟

تتخيل أن رابعة أنجبت ولدا، وسيأتيك ذات يوم.

تضغط على جيبك المنتفخ بالأنواط، خمسين ريالا تلتصق خمسين أخرى، تنزع نحو الالتفاتة الأخيرة للجلجلانية، متخطيا الضواحي التي تقام فيها هبطات[10] الأعياد، تغرّب باتجاه المسجد الصغير على ساقية فلج الأوسط، تأخذ مسارك يسارا على ضفاف الساقية، النسمات تحرك بتؤدة أغصان أشجار الأمبا، الصغار الذين يقذفون حجارتهم نحوها لتتساقط حبات المانجو لا يهربون خوفا منك، كأنهم لم يرتكبوا خطأ في حق "أموال الناس" كما تكرر دائما، لا هيبة لك، يصرخ فيهم سليمان بن حمد فيتقافزون كأنهم لم يكونوا هناك أبدا، وتمسح جرحك، كما

(10)الهبطات: أسواق تقليدية تقام لبضع ساعات خلال الأيام التي تسبق عيدي الفطر والأضحى.

اعتدت، وتمضي، تؤثر الصمت اتقاء لانسكاب المزيد من الزيت الحارق على قلبك.

تحدثك نفسك أن تعبر الوادي باتجاه الجبل، هناك سعيد بن علي نحت بيته، في السفح، قريبا من شجرة سمر، اعتزل الناس ومضى إلى غايته التي لا يفهمها أهل سرور، بقي وحده يعلق على كتفه دوما بندقيته، ويكاد امتداد السكين المغروس في حزامه يشي برغبة دفينة داخله..

لكنك أعجز من أن تبلغ الجبل..

وأنت لسعيد بن علي مجرد غريب، لا يريد تطفلك على عزلته الأثيرة.

قد يبقر بطنك بسكينه، وأنت لا تريد الموت، او تشعر بأنك عصي على الموت، كأنما يلزمك قرنا آخر لتدفع ثمن عجزك تجاه رابعة وبطنها الذي بدأ بالانتفاخ حاملا نسلك، نسلا له صلة بسلالة بنت يحيى، نسلا قد لا يكون لك، ربما لعابر على تلك الغرفة، مع أنك موقن بأن رابعة لا تفعلها، واثق من أنها ممتلئة بحضورك.

قد لا تعود إلى سبلة سعيد بن سالم مرة أخرى، ستطلقها إلى الأبد، كأن في طين جدرانها ألسنة ستمتد نحوك هازئة إن عدت.. لكنك تلعق جرحك وتعود، شيء ما يذهب بك إلى السبلة كل فجر، تجلس إلى سعيد بن سالم، لا تذكر من سبق منكما الآخر إلى الدنيا لكنه بقي في سرور يجالس من عاشوا زمن سلامة بنت يحيى، لا يتحدث عن ماضيه، سرور تنتقي بعض أبنائها لتضع أعمارا أخرى في أعمارهم.

قبل مجيء أحد جلساء المكان يحكي لك سعيد بن سالم عن البيت العود، عن سلامة بنت يحيى التي عرفها سنوات من عمره، كان شابا يافعا، يحوم حول البيت العود، لم يرها، لكنه أحسّ بهالتها تتبوأ فضاء الشويرة لتراه سرور من أقصاها إلى أقصاها، يقول إنه سمع صوت الرصاصة التي قتلت الضبع، تجد راحة في الجلوس إلى سعيد بن سالم لأنه يراك من سلالة سلامة بنت يحيى، أما الآخرون فلا يرونك إلا من سلالة بنت خادوم، يتحدث.. ويتحدثون، وحدك المنصت، سادر في صمتك حدّ الاعتياد، تهمهم، وتخرج، ولا تنطق كلمة واحدة.

تودّ لو تسأله عن والد جدك، زوج سلامة بنت يحيى، يلمح السؤال في عينيك، يفهمه من خلال همهماتك، لا يجيبك، يقول إنه لا يتذكر ذلك جيدا، انسحب من الحياة، تحت وهج حضور زوجته بنت يحيى، لم يعد يراه أحد، أو يتذكره، سمع بعض التفاصيل من والده، يقال إنه بعد الحادثة الشهيرة توارى عن الأنظار، أو أن ذاكرتهم لم يبق فيها ما يؤرخ للحكاية القديمة وقد تناسلت الأعوام على كهوفها عقدا فوق سابق.

***

يسارك الطريق إلى الشويرة، لكنك لا تلفت إليه، تجتهد أن تلغيه، أنت لا تكره الشويرة، بل تكره عبدالله بن خلف، يصفعك بما تسعى لتجاهله، تكرهه كثيرا، تحمّلت حدة لسانه طويلا، وسعيد بن سالم فغر فمه على أسنان تآكلت، يبطن ضحكته أكثر مما يبين، وهم يعرفون كل شيء.. عن جدك، وعن جدتك، وعن حكاية البيت العود، تتخيّل أنهم

يحتفظون بذاكرات لا يأتيها النسيان، من أي جهاتها، وأن الحكايات القديمة تناقلت إليهم محفوظة دون مساس بصدقيّتها، حبك لسعيد بن سالم ينسحب أحيانا بقوة، تدرك أنه يروي لك الجانب المضيء الذي يستهويك تاركا الباقي لولد خلف، كأنهما يتقاسمان أدوار شتاتك، يحتفظ بمحبتك له، واحترامك، تاركا حقدك يختص به عبدالله بن خلف.

لا تكره الشويرة، بل تخشى ضعفك أن تنفجر قوته، أن تبكي إذا رأيتها، أن تنتحب بشدّة تجذب الأبصار إليك وأنت تسعى لمحو علاقتك مع الأمس، في نومك تراها فتستيقظ بدمع في عينيك، فكيف بك إذا سرت في دربها!

- اكسر حاجزك العظيم وامض إلى الشويرة لتراها.

- بل أراها في كل يوم.

- لكنها على بعد حارة منك.

- البيت العود لم يعد كما عشته في خيالي سنوات.

- عد إليه.

- لا أستطيع.

- أنت عاجز عن مواجهة أثقال الأمس.

- لو رأيت الشويرة لبكيت، لا يليق بي أن أبكي.

- لكنك تبكي كل يوم.

- بما لا يراه أحد.

- عد إلى الشويرة، البيت العود ينتظرك، تبكي مرة واحدة، وبعدها...

- آآه، لو أستطيع.

- لماذا تركت البحرين إذن؟!

- لأكون في سرور، قريبا من الشويرة.

لا ترى سائلك، ولا يسمعك، في خلواتك تتخيله، كأنما الصوت يصعد منك، وإليك يعود، زفرة منك ترتطم بأحجار جبال سرور فترتد بصدى مخيف.

***

على ساقية الفلج امرأة لم تتبيّنها، لا زالت تغسل أوانيها في الماء المنساب، كأني بك رأيتها، جدتك بنت خادوم تحمل مواعين البيت لتغسلها على ساقية الحيلي، الفلج الآخر الأقرب للشويرة، لا تتذكرها جيدا، جدتك، لكنها تستوطن نبضك، حمّلتك لونها، تورطت به بما يعطي لعين عبدالله بن خلف وآخرين أن يغمزوك، تخشى لو أن الغمزة لما هو أكثر من اللون وحده، أن رابعة انكشف سرها، مع أنك لست واثقا من أن سرور لم ترك تدخل خلسة غرفتها النائية، تقتحم السور الصغير الضامّ بين جدرانه أغنام رابعة وثروتها.

وددت لو أن أموالك تعطيك لون سلامة بنت يحيى، كما تلحّ عليك

ذاكرتك بها، كما يثقلون عليك بسيرة يختارونها، السيرة التي لا تنسى جدتك بنت خادوم، وتقاوم ظنونا أخرى أشد مرارة من اللون، أن يكون أبوك ابن حرام، أو أنهم يعرفون بوجود ابن لك أو ابنة بذات الصفة، الكلمة الأشد جحيما.. مارد يفرد أجنحته الشيطانية عليك تعتم الدنيا في عينيك فلا ترى سوى لون الأمس القاتم، هل في غمزة ود خلف إيحاء السلالة وحده أم فجور السلالة أيضا؟.

***

لا أحد يتذكر.. وحدك لا تنسى..

كدت تطلق الصوت بكاء في عتمة مهجعك، نهضت زوجتك تقرأ عليك، وكنت ترتعش بين يديها، تكاد روحك تغادرك، مع أنك موقن أنك لن تموت.. قريبا، على الأقل.

- كلنا أبناء آدم.

- سرور لا تعترف بهذا.

- لا فرق بين...

- الشويرة لا تنسى.

- كان عشقا سار في الحلال.

- قلبي يتشكك.

تعود إلى بيتك.. البيت الجميل والعالي الذي أردته استرجاعا لزمن البيت العود، مع أن عناكب الأمس تتسلل بخفة إلى دماغك لتعبث به حتى تكره البيت العود، تكره ساكنيه، تكره جدك، تكره جدتك، إلا سلامة بنت يحيى، عصيّة على الكره، أو أنك تخشى أن تسمعك عفاريتها فتترقبك عند غافة المغلغل تقيّدك كما فعلت مع مبارك الشبكه، رأى في نومه أنه وقع في شبكة عملاقة تتدلى من الغافة الضخمة في الانعطافة التالية لحارة الحبيك، افتقده أهل سرور سنوات يراهم ولا يرونه، ثم عاد من غيابه وغيبوبته، هاذيا يحدث العابرين عن الشبكة العملاقة ووجه سلامة بنت يحيى.

***

تسترجع سوالف السبلة، يأسرك سعيد بن سالم بحكايته، حدثك عن سلامة بنت يحيى التي رآها في نومه ليلة البارحة، أخبرته عن دفتر قديم، تحت الجدار (الحدري) للبيت العود، وددت لو أنك من رأى الحلم، أن تسترد أحقيتك برؤية سلامة بنت يحيى، تساءلت: بأي حق يرى سعيد بن سالم سيدة البيت العود؟! لكنك تنسى تحت وهج انسيابية الحكاية الدفتر القديم الذي رأوه في يد سلامة بنت يحيى يوم الجائحة ولم يبتل رغم المطر المنهمر بشدة لم تعرفها سرور في تاريخها، كما روى ذلك خميس بن ناصر.

حدثوك أكثر، وغبت في التفاصيل، كما تبتغي..

لم تهزها الأصوات المخيفة المتماوجة بين الجبلين الشرقي والغربي،

خلعت قلوب رجال لم يكونوا ذات يوم يبالون بالموت، فتّتت جائحة السبعين إرادات صخرية لأبناء الجبال الذين اعتادوا السير فوق أشواك أشجارها حفاة يداوون جروح أقدامهم بالتراب، يقبضون بأيد متشققة ما تبقى لهم من أطفالهم بعد عراكات مستمرة مع أمراض وعلاجات الجدات القاسية، وحدها قامة سلامة بنت يحيى بقيت منتصبة فوق سطح البيت العود والجبال حواليها شرقا وغربا تنزف بجنون، شلالات المياه الهائلة تحاصر سرور، مندفعة إلى حارات تغرقها جميعا، لا درب بقي ولا جدار، قالوا إن دفترا في يد سلامة بنت يحيى أنقذ سرور من الانمحاء الكامل، وأهلها المشرفين على الموت غرقا، بدبد المجاورة لم تبق فيها إلا نخلة واحدة، قاس عليها سكانها ما كانوا يملكون قبل الطوفان.

كانت سرور في الأيام التالية تبكي ما حمله الماء من أهلها إلى البحر الذي لا يبعد عنها كثيرا، عائلات ذهبت، بيوت لم تبق إلا أثرا بعد عين.

***

تعرفك الكثير من نخيل سرور..

وتعرفها.

ولدت على يديك بامتداد الخمسين عاما من سنوات عمرك منذ عدت، كنت كالقابلة حين تهيّىء المكان لفسيلة جديدة، لم تعد البيدار، أصبحت الهنقري، بيدار في ضواحيك المتوزعة على أمكنة سرور، وقد عدت تحفظها جلبة جلبة، وتعرف مواعيد سقيها، ومتى يحين دورها في جدول الفلج المتوزع في هذه الساقية أو تلك، إذا جفّت ساقيته حينما

تذهب لتتوضأ تعرف أين الفلج وفي أي ساقية فرعية انحرف عن مساره الأصلي.

حين هرم جسدك وعجز عن صعود النخيل جئت بالعامل البنجالي يخدمك.. إنما لم تتركه، تسير في أثره، تأمره أن يرد الصوار، ويشق الأرض، ويزرع، ويفسل، لا تريد أن تغيب التفاصيل عن بالك لحظة، صار رفيقك أينما حللت، تتركه حينا لتجلس إلى سبلة سعيد بن سالم، ويأتيك أحيانا بما يقال في جلسة العصر أمام دكاكين الشويرة مسقطا آخر أخبار حارتك الأثيرة، وسرور، وأماكن لا تحصى يأتي بحكاياتها، مسعود وغيره من مريدي المكان ساعات ما قبل المغرب، ضحكات وأقاويل، وتسلية حيث لا تتوفر.. إلا هناك.

يخبرك عن علي الهندي الذي بقي في دكانه أكثر من خمسة وعشرين عاما، يعرف الشويرة أكثر مما تعرف، شويرة اليوم ليس كالتي كانت في مخيلتك، تعرفها الآن من خلف أقنعة الكلام، ترسل عاملك البنجالي إلى دكان علي ليأتي إليك بما تحتاجه من أغراض يومية، تتذكر العم سليمان، غادر دكانه وسط الحارة، تركه لعلي الهندي، أصبح علي ذاكرة جديدة للشويرة.

تسمع أنهم يجتمعون في المساءات أمام دكان علي، تود لو أنهم يأتون على سيرتك قليلا لتدرك أمرا ما، لتكون محور اهتمامهم على الأقل، لكنهم حريصون على التيقن أولا من عدم وجود عاملك ليمضوا في السيرة التي يختارونها من زوايا حياتك، تشعر بالراحة أنهم يتحدثون عن

البيت العود، ويتحسرون على زمن بنت يحيى، زمن الخصب والأودية والبركة.

هكذا يحيلك وهمك، هم لا يرون البيت العود إلا خربة، ولا يعرفون من هي سلامة بنت يحيى، مجرد امرأة وقعت تحت ممسحة الذاكرة القوية، وحدك المجبول على التذكر..

امتلأت الشويرة بالأسمنت، بيوتها، وشوارعها، لم تعد غافة الشويرة في مكانها، ولا السمرات التي كان الشواوي يستظلون بها يوم مجيئهم بأغنامهم لبيعها في الهبطة.

سرور لا تعرف حتى نفسها ولا تتذكر ما مضى، الدرب الترابي الممتد كفاصل بين امتداد النخيل والسيح الأجرد نام فيه الأسفلت بنعومة، ونهضت المنازل الحديثة على امتدادات السيح حتى لامست سفح الجبل الشرقي.

توجّعت الشويرة يوم أن كسرت آلة حديدية عملاقة الغافة، كأنك سمعت صرختها إذ اغتيلت في نهار عيد ليمرّ شارع إسفلتي، جذعها أطلق آهة أحرقت قلوب عشاق هذه الغافة، كيف تكون الشويرة بدون غافتها، وقد تقرّح جفنها حزنا على بيتها العود؟!

صوت الغافة المجتثّة عرفته، آلمك، لم تدرك ما حدث حينها، لكنك أيقنت أن أمرا جللا حدث في الشويرة، وأن الغافة صرخت، لم تدرك أنها تصرخ برحيلها.

بقيت وحدك تذرع دروب سرور كل يوم.. تستريح حينما يتعبك المشي على ساقية فلج أو فوق جذع متساقط لنخلة، تنهض من نومك فجرا لتخرج من بيتك، تشبه ساعد بن علي، في سيرك وتأملك العابر للطرقات والبشر والنخيل، لكنك لا تمتلك فلسفة بن علي، لم تقرأ كتابا في حياتك، قيل عنه إن العلم جنّنه..

تعرفك سرور، وتعرفها.. بعضهم يمضي عنك كأنه لا وجود لك على زوايا دروبهم، يعبرك بعضهم بالسلام عليك، ويدرك آخرون أنك صامت لا تكاد تسمع صوتهم، رجل من زمن قديم، لا يفترض التعثر بجسده، أو بلسانه..

تمضي كما شاءت لك خطواتك، مساجد سرور بين ناهض بالأسمنت أو متساقط الجدران الطينية، لم تعرفها طفلا كما ينبغي، رسمتها حكايات الناس في البعيد الذي هناك، وفي عمقك تكونت ملامح قرية أحببتها بعمق أكبر كلما أتوا على ذكر البيت العود.

حاولت تجنب ساعد بن علي في سيرك، تخشى أن يسألك عن البيت العود، وأنت لا تتذكره كما ينبغي، ولا ترغب، تشعر أحيانا أنه يعرف رابعة، وحملها، وخروجها من سرور.. تسأل نفسك عن الغرفة هناك في طرف الحارة البعيدة، منذ طفولتك كنت تسمع أن تلك الحارة تسمى بالبعيدة، لكن رابعة قربتها إليك.

باغتتك ساعد بن علي، دون أن تدري من أي الجهات استدار ومر بجوارك، غمغم، حاولت أن تفهم، أن تتصيد بعضا من كلماته، لكنه مضى

كظل، بن علي يهيم في ملكوت آخر هذا النهار، فيلسوف أضاع طريقه، زاهد عرف دربه وقد اختارها بثقة العارف، كعادته، يضع الدشداشة الجديدة على رأسه يربطها كمصرّ، ويرتدي القديمة، كأنه يستسهل تغيير ما على رأسه، بينما يزهد في تلك التي على جسده وقد أتت عليها الأيام، ينام أينما يغلبه النوم، في أي زمان ومكان، كأنه يعيش خارجهما، معتزل داخل ذاته، وددت لو أنك تشبهه، يعرف كيف يعيش داخل نفسه بمنأى عن الآخرين، يلغيهم من وجوده، أنت لا تشبهه إلا في جريانه داخل دروب سرور، يغيب عنها شهورا ثم يعود، ليس معنيا بشيء..

.. وأنت لا تجيد هذه الغواية، ما تلغيه يحاصرك، ومن تطلبه ينأى عنك، عنيدة هذه الحياة كرأس حربة، قاتلة كما يشاء القاتل، وكما لا يشتهي القتيل، وأنت القتيل، أنت القابض على رأس الحربة، تقتلك وأنت حاملها، والقاتل لا تراه، نصف تاريخك يقتلك، ونصفه الآخر لا يحييك مع أنك صنعته بأظافرك إذ تحفر في الأرض تغرس فسيلة أو تمهد الدرب لانسياب الماء داخل مسارب ضواحي النخيل، أردت بنعومة الريالات مداواة قسوة جلدك، لكنها... تشققات كفيك عصية على كل دواء، على جلدك خرائط من قسوة عيش، وعلى كفيك سَوَاقٍ شاهدة على رحلتك، شقي بنفسك وقد امتد بك العمر، كم حلمت أن تكون ثريا عندما تكبر، وعدت من البحرين تجر معك خمسين عاما، عارية وجائعة..

بعد الستين جاءت لك الحياة بالأحلام التي كررتها قبل عشرات السنين، قدرك أن تعطيك الحياة أمنياتك متأخرة، متأخرة جدا، لكنه أعطاك عمرا أطول لتعيش كأنك للتو بدأت العيش.

لا تجتهد في قطف ثمار أحزانك، تتساقط وحدها كشجرة الليمون في مقصورتك الغربية، كل صباح تجد عشرات الحبات تنتظر يدك تلتقطها كأنها فوانيس تناثرت على تراب الأرض التي تحب، تنحني لتلتقطها مغالبا ثقل السنوات على ظهرك، تشعر بحنان عذب يجتاح روحك فتحتضن جذعها ليسري وميض قوة ناعمة في جسدك يمنحك إرادة صافية، كلما امتلأ كأس حزنك تجيئك رائحة الليمون.

ستحمل إلى زوجتك حبات منه، تدرك برؤياها أنك تشتهي سحناة قاشع لغدائك، تغيّرت علاقة سرور مع مطبخها البسيط كثيرا، تتذكر المراجل في البيت العود، كنت تستحم فيها أحيانا عندما تهبط من على أحجار مواقدها، في تلك المناسبات، والعيدين[11] فقط، تعرف سرور اللحم، لم ير أحد ماشية تدخل البيت العود لكن اللحم يخرج منه نيئاً مرة ومطبوخا مع الأرز مرات ومرات إلى بيوت الفقراء وما أكثرها، لا يسألون من أين وكيف مخافة أن ينقطع عنهم.

مرة سألك ساعد بن علي عن البيت العود، وقصة بنيانه، أنت لا تعرفها، وهو يسألك كأنه على معرفة ما، يريد اختبارك.. ويمضي حاملا ثقل سبعينيات عمره بتؤدة الزاهد، ومعه دفتر قديم يقال إنه سبب جنونه،

(11) العيدين: الفطر والأضحى.

وحدك لم تعترف أن ساعد بن علي مجنون تخشى من سطوة لسانه إذا أخرج ماردها من فمه المطبق غالبا، يعرف ما لا تعرفه سرور، لكنك لم تسأله عمّاذا يعرف عن البيت العود.

لم تلتفت إلى جلبة الحناظل[12] وقد زهت بحناظلها.. ولم تشبع بصرك رؤية اصطفاف أشجار الليمون بثمرها الزاهي تقطفه في جوانٍ تبيعها في سوق نزوى قاطفا حصادها ريالات تكفي أشهرا.. وتفيض.

للزمن متغيراته، امتداد تخيلك من شمال سرور إلى جنوبها، ومن شرقها إلى غربها، عبء عليك يثقلك، ما عادت كثرة النخيل عزوة لصاحبها.

يعيش أغلبهم على ما ورثوه، ووحدك تعيش على غير ميراث أبيك، وترى الفارق هائلا بينكما.

والدك حفيد سلامة بنت يحيى..

وأنت حفيد بنت خادوم.

والبيت العود على مقربة منك، تهاوى جدار بعد جدار، كل جدار يسقط كأنه يتكدس ترابا على روحك، قال لك ناصر بن خميس إن أول جدار سقط من البيت العود أصاب الشويرة بغصّة بقيت في حلقها أسابيع، حتى موعد سقوط الجدار التالي، كأنما الشويرة رأت في سقوط أول جدار بداية سقوط أكبر يزحف نحو عائلتك.. المتشبثة بإباء البيت الذي جاء من حيث لا تتذكر الشويرة أو بقية حارات سرور، وجاراتها.

(12)جلبة الحناظل: المساحة المزروعة بنخيل من نوع الحنظل، والجواني: أكياس الخيش.

لم تعد من سكّان البيت العود، ومن العائلة الكبيرة التي سكنته، هناك بيتك الإسمنتي الكبير يحتضن عائلتك الأصغر، مهما فعلت ليبدو كبيرا لم يكن يلفت أحدا، تشعر أنه صغير، حكاية البيت العود داخلك تصغّر كل شيء، تجتهد لتقنع نفسك أنك بنيت بيتا أكبر من ذلك المتساقطة جدرانه، تلغيه من بصرك لعلها بصيرتك لا تنتبه إلى بقاياه في زوايا ذاكرتك، لكنه عصي على النسيان، وأنت لا تروم إلا التذكر.

***

تغرق جبهتك في جداول الأمس، في قيعانها حدّ انقطاع النفس.

تفرّ من فراغ اللحظة، هواجسها، انعكاسات الانكشاف على جدول الفلج الراكضة مياهه من ساقية إلى ساقية، ومن جذع نخلة إلى آخر.

قريبا من مدرسة القرآن تجلس على ساقية الفلج، تضع قدميك في الماء المنساب، يرطب أوصالك، ويضم جراحاتك يغسلها جريانه، علاجك القديم لا يزال يروقك، كلما أتعبتك الحياة جئت إلى الفلج تضع فيه قدميك، قريبا من نخيلك التي تتطاول في السماء شموخا وكبرياء تود لو أن روحك ترتفع إلى هناك، في العلو الذي لا تستطيع الوصول إليه بجسدك العاجز، يوم أن رأيت المسبح الذهبي في شارع هوندا تخيلت أنك ستقتني تحفة لم يبلغ رقيها أحد في سرور، ضحك المقاول، الشايب الثمانيني يشتري ذلك!، وجئت به دافعا مئات الريالات، تمددت فيه كأنك في ساقية الفلج.

فجأة خرجت منه شبه باك، وذهبت إلى المجازة الكائنة قرب مسجد السوق وتمددت كأنك في حلم لا تود الخروج منه، ساخرا من المتأففين الذين يركزون كثيرا على فضلات المواعين والأجساد تعبرهم يحملها الماء المنساب، الماء يغسل بعضه البعض، ولا نجاسة في ماء متدفق.. حكمتك الأثيرة.

لم يعد المعلم سعود يلقن أطفال سرور قراءة القرآن، كانوا جيلك الذي رحلت عنه نحو مهجرك، وحين عدت وجدت أكثرهم ينتظرونك لتودعهم واحدا بعد آخر، تسير في الجنازات كأنك الحي الأخير الباقي، يرحلون نحو مضاجعهم الأخيرة وتعود أنت إلى مضجعك في غرفتك تنام على أشواك أسئلة لا تكف عن هذيانها.

تبحث عن دواء لروحك القلقة، الريالات في يديك، أكثر بما يفوق الوصف، عمّا تحتاجه في سنوات عمرك المتبقية، مع أنك تدرك امتدادها كأنما الموت نسيك، يأخذ آخرين ويتركك تنعم بما جاءتك من نعم في سنواتك الأخيرة، لا حيلة لك بمتع الدنيا، من نساء ومأكل وملبس، بعد رحيل رابعة انطفت فيك جذوة جسدك، وزهدت في كل جسد، تخلت عنك قدرات جسدك..

متعتك الوحيدة والباقية أن تشتري المزيد من النخيل، تفوق في عددها قدرتك على عدّها، تلذذك بجني ثمارها تضاءل، تحب شراء الضواحي التي بها نخيلات صغيرات لتتمكن من قطف حبة الرطب بيدك، تشعر أن الدنيا رهن إشارتك، سعادة مستلّة من حياة مليئة

بالكآبات والعثرات، تحت نخلة أثمرت للتو تأتيك ذكرى المرأة الغريبة، تود لو تطعمها رطبة من نخلة الخلاص هذه.

وتتذكر رابعة، فتكاد تتهاوى، أهناك وارث لا تعرفه له الحق في جميع ما تملك؟ له الحق في ذاكرتك أيضا؟!

***

عجز جسدك يسير بموازاة عجز روحك، في شبابك اعتنيت بنخيل الآخرين، صعدت هامتها نخلة نخلة، هي نخيل الغرباء، وعندما أضحى لديك نخيلك باغتك جسدك بضعفه، تود لو تتشاقى مرة واحدة لتصعد ولا يهمك بعدئذ أن تموت، لكنك تخشى أن لا تموت، موقن أن عمرك طويل والموت عنك بعيد، وأنت تذرع السنوات عشر بعد أخرى، باق من تلك الأزمنة القصية، تذكر "شيّاب" سرور شبابا حينما أبت من البحرين، أخذهم الموت في سواقيه، وحدك الواقف على ساقية الحيلي ترطب قدميك في شريان سرور، تسعون عاما تذرع الأمكنة عاشقا قلقا، لا تدري شيئاً سوى النخيل أهلك وبيتك، زوجتك زوينة هناك في البيت تترقبك، وابنتك الوحيدة، تعود بطفلتها الوحيدة، ذهب زوجها ذات ليلة ولم يعد، سنوات من الغياب والوجع أبكت روحك على ابنتك وحفيدتك، كم أدمنت روحك البكاء!

هرمت زوينه، ونسيك الزمن فلم يبلغك الهرم كما ينبغي، لا زالت خطواتك أصغر من عمرك بعقود، لولا ارتعاشة يديك إذ أرهقهما العمل كثيرا، وآذاهما.

لم ترض غير زوينه زوجة، ورفضت الحاح الشايب مسعود بالزواج مرة أخرى، لديك المال، لكنهم لا يعرفون ما ليس لديك، تشعر أن روحك أيضا لا تمتلكها، أخذ بعضها جدك وهو يضاجع بنت خادوم، وأكلت الباقي ذكرى رابعة، عندما نهضت عن مضاجعتها لآخر مرة همست لك في عتمة الغرفة الصغيرة في تلك الحارة البعيدة، وقالت لك إن الدورة تأخرت، وأن الحمل لم يعد خافيا، كسرتك في ليلتك تلك، كنت وطنت نفسك على أن لا تعود إليها، صبرت شهرا أو شهرين، لا تتذكر، وعندما عدت أوقعتك في بئر مفاجأتها، لا تذكر إن كانت رحلت بقرار منها، أم أنك طلبت منها ذلك، ذاكرتك تظللها غيوم وتحجبها زوابع، دفعتها للخروج من سرور، وأنك لن تتخلى عنها.

رحلت رابعة، معها بعض روحك، وبقايا آثار من جسدك لا تمحى، كرّت الأزمنة على عمرك المديد.. ولم تنْسَ حتى تلك التفاصيل في رابعة، ابتسامتها إذا أرضيتها بثلاثة ريالات، فحولتك التي تدّعي أنها لم تشعر بمثلها في سرور.

***

تتذكر..

هذا كل ما يحق لك، وما تستطيع عليه..

تنغرس الشوكة في خاصرتك، وأنت تستعيد للمرة الألف وجه عبدالله بن خلف حين يخز غمزته، فلا تستطيع لرد ذلك سبيلا.. كأن عمرك محفور تحت شجرة عملاقة غرستها غمزة ود خلف المتكرّرة، سنوات

طوال لاحقتك، زحفت وراءك، اغتالتك كثيرا، خنقتك في لياليك تحت وطء بكاء لا تكاد زوينة تعرف سببه.

زوينة عاندت السنين الطوال ولم تحمل، وشجرة العائلة كادت تتهاوى لجفاف مائك الذي لم يسل في رحم زوينة آتيا بالامتداد لحبل الأسلاف، رغم فجيعته، إلا مرة واحدة، أنجبت لك ابنة، ثم صمت رحمها..

.. ولا تعرف باقي أفرع الشجرة لتتأكد أنها لازالت حيّة بهم، أم أنهم غادروا كل شيء؟!.

لا تعرف سوى زوينة، ويوم ان انتفخ بطنها تحركت في مخك عناكب قديمة، آتية من الزمن البعيد، فرحت بالقادم، لكنك خشيت عليه من لعنة اللون، لو يشبه أمه، يأخذ بعض ملامحها، جميلة بلا ريب، لها العينان الصافيتان كماء الفلج حين ينساب في أيام الخصب.

هل تتذكرها وهي تعاتبك لأنك خجل من لونك؟ "هذه مجرد قشرة، في الداخل كلنا متساوون"، لكن الناس لا يرحمون، والشويرة جحيم الألسن؟.. ترد عليها.. وتصمتان، أنت باتجاه الغرق، وهي نحو هضاب اليأس.

ليست الشويرة وحدها، كل سرور لا ترحم.. تدرك ذلك، وأنت تجرّه قيدا لا يجرح قدميك فحسب، إنما يمتد إلى كل نبضة فيك، إلى روحك المأسورة يعذبها سجن الأمس.

مضت سنوات لم تصادف الشيخ في مرورك، لا تدري ما الذي ذكّرك

به في صحوك هذا؟! تصرفه عن مخيلتك.. وتأخذ درب الرمّ مسارا.

تنظر في عينيها، ليست المرة الأولى.. ولا الأخيرة.. كلما تساقطت على روحك أحجار الحزن كانت زوينة تجتهد لتزيحها حجرا بعد آخر، ترى فيها امتداد سلامة بنت يحيى، التي سمعت عنها، ولم ترها، أرتك إياها روحك، وأنت تختبىء وراء جدران البيت العود كأنك تبحث في أطلالها عن حكايات الأمس، لتتحقق بنفسك عمّا حدث قبل ما يتذكره أحد، حين زحف البيت العود من فوق الجبال وجاءت به سلامة بنت يحيى حتى وضعته في منتصف الشويرة، معها رجلها الذي لم تتذكره سرور كثيرا، ارتحل صالح تاركا بنت يحيى لمرارات سرور، لكنها أقوى من كل شيء، لم تهزها الوحدة بل آمنت بها، وزحف جدك واخوته يملؤون عليها ما أمكنهم وحدتها.

غاب صالح بعد أيام من اختفاء ابنه العاشق.. خمنوا أنه عرف إلى أين مضت الأقدار بجدك ناصر، غاب ذات ليل، لم تقل عنه سلامة بنت يحيى شيئا، لا يتذكر الناس متى غاب صالح عن أنظارهم، اعتادوا غيابه أياما وحضوره أقل منها، لم يفطن المصلون في مسجد الدروس أن صالح لم يروه في الصلاة منذ أكثر من شهر.. حينها تساءلوا، لم يجدوا الإجابة، فصمتوا..

كانت مهابة البيت العود قادرة على لجم أصوات التساؤلات عنه وحوله.. كأن بنت يحيى تملك مفتاح الكلام في أفواه الناس عن البيت العود، هي تقرر متى يتكلمون عنه، ومتى يحين موعد التزام الصمت.

اتكأت على جدران المبرز الإسمنتي، شعرت به حارقا..

جاءك صوت زوينة يسألك عن (الحلا)[13]، ماذا ستطبخ لوجبة غداء اليوم؟

أنت الغارق في لجّة الأمس، ترى نفسك الطفل في يد أبيه، لم تجبها، هي تدرك المعنى حينما لا تجيبها أكثر مما لو تكلمت، بإمكانك القول أنك بعد الضحى ستذهب إلى السوق بصحبة والدك بمجرد أن تسمع الشايب هاشل يصيح بصوته معلنا وجود سمك اليوم في السوق، فتسمعه كل سرور، من أقصاها إلى أقصاها، جاء أحدهم بثلاث سمكات أو أكثر على ظهر حماره، يغرقها في الملح ليصل بها في المسافة بين البحر وسرور، ستحمل ما يشتريه أبوك، سمكة سهوة ببضع بيسات، لو تذهب إليه اليوم، وتشتريها ببضعة ريالات، ، بضع "حزّات" تكفي لك وزوينة، والباقي يخزّن في برودة الثلاجة، تنتبه إلى تداخل ماضيك السحيق مع يومك، السوق تساقطت دكاكينه واحدا بعد آخر، مات الباعة رجلا إثر رجل، انطفأت حيوات كثيرة مرّت على المكان، خميس بن حمود، سعود بن سليمان، خلفان بن عبدالله.

يوم أن عرف سوق سرور أول سمكات تأتي بها سيارة، قادمة من مطرح، تهامس أهلها عن حدث جديد، وصلت الأسماك في نفس يوم صيدها على الأرجح، عرّفه الشايب هاشل لكم، ولد شبيطان، جاء بسيارته اللاندروفر القديمة، أنزل منها حمولته من (الصيد)، أكثر من

(13)الحلا: يطلق على السمك حينما يطلب لطبخه لوجبة الغداء.

عشر سمكات صفّها الشايب هاشل بجوار بعض وقام ينادي عليها، سمكة سمكة، لا ينطق بالريالات.. يكتفي بالمئات، تسعمائة، عشر مائة.. وهكذا يمضي في العد، له دفتره الذي يسجل فيه الحساب لمن لا يجد في حينها ما يدفع به الثمن، خط عجيب لا يعرف فك طلاسمه إلا هو.

لا يتذكر أحد متى ولد الشايب هاشل.. ولا أنت، كأنه ولد مع سرور، وسيموت بعد أن يطمئن على موت الجميع، حافر القبور المعتاد وداع أهلها، كأنه يذهب بهم إلى مشوار بسيط، ويعود ينفض كفيه كأنما تركهم في بقعة ما ريثما ينهي المهمات الموكلة إليه ويؤوب لإرجاعهم إلى أهلهم الباكين.. كأنه ينتظرك، ليواريك لحدك، ثم يموت.

طلبت منك زوينة أن ترى سيارة شبيطان، قد تشبه التي رأتها في البحرين، للمرة الأولى ترى سيارة تعبر طرقات سرور الممكنة أمام اتساعها، كان ود شبيطان يبدأ في تشغيل اللاندروفر بالهندل إذ مررتم قريبا منه، في طريق بالكاد يتسع لمرور أحد، شغلت السيارة الحيز الأكبر في الدرب المؤدي إلى السوق مقابل دكان حمد بن هاشل، تقطع ساقية فلج الحيلي الدرب لتصل السيارة إلى داخل السوق.

تعيد زوينة عليك تكرار السؤال عن السمك الذي جئت به، ليس من سوق سرور الغائب في دهاليز النسيان، بل من سوق القرية المجاورة، ما عاد السمك يباع في سرور، بقي عبّود ينقلك في سيارته البيك أب لتأتي بما تحتاجه لبيتك، يسعدك قبوله طواعية، ما تحس أنك تأمره به، وهو يراهن على ريالين تهبهما إياه أجرة توصيلك، تواطؤ بينك وبينه، ريالان للقرى المجاورة وعشرة إلى مطرح، لا مساومة في ذلك..

كأنها سمعت صوتا من داخلك لم تقله، لم تأت بشيء، جئت مثقلا بذات الغمزة تطعن بسهمها المكان ذاته الذي تكاثرت فيه طعنات سهام توجعك، ألمك طاغ، تكابر لتحصد المزيد من الأموال، تكاثرها قدر ما تستطيع، لتغدو جديرا ببنوّة البيت العود، سلالة سلامة بنت يحيى، كأنك تحاول إلغاء جدتك بنت خادوم من شجرة العائلة.. تعرف زوينة أن الغمزة تتجدد كل حين، من نظرة تدرك ما يوجعك.

تحب سلالتك وتكرهها في آن واحد، تكره القدر الذي لم ينصف إنسانيتها، كأنك تذكرت تلك السلالة يوم أن عرفت بما فعله جدك مع أنهم في بقاع ما، يتناثرون ويتكاثرون.

يكبر السؤال في فم زوينة، تفرغه في أذنيك خشية أنك لم تنتبه، لكنك لم تتكلم، تدفعك الذكرى قليلا بعيدا عن غمزة ود خلف، كلما رأيت الحمار قادما بالسمكات تحل عليك حكاية أبيك هلال، يوم أن تزوج أمك، حملها من سمائل على ظهر حماره، لكن الرغبة واتته في المسافة الفاصلة بين سمائل وسرور، أنزلها قريبا من فلج هصاص، ودخل عليها هناك، اغتسل بماء الفلج، وصلى الفجر، دخل سرور بعد الضحى، كان المنتظرون يخشون أن يكون قاطع طرق تعرض له، أو ابن قبيلة مجاورة أخذ بثأر قديم مات في صدر وبقي حيا متمردا في صدر.

كان أبوك هلال يبتسم إذ ينزل عروسه من على ظهر الحمار، مكملا دخلاته في الغرفة الطينية الجديدة في البيت العود، وكانت جدتك بنت خادوم تقف بصمت في حوش البيت، ملتصقة بجدار تبدو امتدادا له،

بلونها الداكن، تفكر في أمر، وتلك حكاية سأرويها لك، حينما يحين موعد الحكاية، ثق أن للحكايات مواعيدها إذ لا تروغ عنها ولا تحيد.

كانت سرور تقلب دفاترها فتتناثر أوراق صفراء على دروب حاراتها، عن هلال والمرأة الجديدة التي تدخل حمى البيت العود، وعن جدتك بنت خادوم، من تخدم من؟ وهل ستكون زوجة هلال أقرب للشبه في المكانة من بنت يحيى أم من بنت خادوم، أم زوجها؟

لكن والدك هلال أمضى عامه الأول في غرفة لا يفارقها، عام كامل لم يره أحد، يقال إن سلامة بنت يحيى قيّدته بسحرها، ويقال ما لا تحصيه الأفواه ولا تتبيّنه.

تدفق الأمس عليك بوابل من جمر التذكر، بسلامة بنت يحيى، سيدة البيت العود، قلب الشويرة، مبتدؤها ومنتهاها، أكله الدهر دونكم، تساقطت جدرانه واحدا بعد آخر، تهدّم الطين حين اشتدّ جفافه، هو القابض على ماء الماضي، لم يجدكم لتعيدوا إليه روحه، يوم أن كانت سلامة عامرته، حتى حين غادر رجلها إلى اغترابه، مختارا منفاه، هاربا، وهو الذي اعتاد أن لا يهرب، عليه واجب أزلي، أن يبقى جديرا بسلامة بنت يحيى، يجتهد كي لا يبقى ظلا، مقدر عليه البقاء ليس أكثر مما أرادته له بنت يحيى، لم يسع لتحطيم أقفال أقداره، يبدو كرجل ممتلك لزمام بنت يحيى, بندقيته لا تفارق كتفه، ومحزم الرصاص يكاد ينام به، يضاجع بنت يحيى ومحزمه على وسطه، والبندقية في الوتد معلقة قرب

رأسه، أسرّ في أذن الشيخ بذلك، وفي الليل كان يتقلب على جمر.

آخر ليلة ضاجع فيها سلامة بنت يحيى تلك التي أخبر الشيخ بأمرها.

يوم أن قرر جدك ناصر بن صالح الزواج من بنت خادوم، ألقم فم الشويرة نارا اشتعلت سنوات طوالاً، لكن العشق أعمى، أصرّ جدك أن يتزوجها، جميع أهلها لاذوا بالصمت، والدها وأعمامها ومن سكن سرور من أقاربها، لا حق لهم سوى الصمت في مواجهة زلزال مخيف، يعرفون ميزان القرية، أرسل شيخ القبيلة في طلب خادوم، ضربه بعصاه الخيزران، والمضروب يحني رأسه كأنه يقول زدني، أما الضارب فيمد سوطه بقسوة توازي قوة صوته الشارخ لآذان المتحلقين من حوله فرجة.

.. وجيء بجدك العاشق ليلقيه الشيخ حبيسا في البخّار، لم يكن يتصور أحد في سرور أن يتجرأ الشيخ على رجل من سلالة البيت العود، أمه سلامة بنت يحيى، يلقمه فم البخّار الذي عادة لا يفتح بابه المغلق بأقفال متينة وهيبة الشيخ إلا لعبد مقصّر أو لرجال يطلبهم السلطان في مسقط أو الإمام في الشرقية.

يروى أن جدك كان يصرخ بصوتها وهو نائم، سمع الشيخ مرارا الصوت يخرج من البخّار إذ كان يهم دخول سبلته، رآك مستغرقا في نوم، قيل إن عينيه دمعتا، أي جنون يحملك أيها القبيلي للزواج من خادمة اشترى الشيخ والدها قبل سنين طوال، وحامت حولها روائح الرجال في الحارة والحارات المجاورة؟!

استدعى الشيخ والدها خادوم مرة أخرى، بكى الأب بشدة، انهال عليه الشيخ بعصاه فبكى أكثر، لم يكن من حقه أن يترحم ويستعطف، ولا أن يقول لا ذنب لي، لكن الشيخ سيّد بخيزرانته ينهال بها على من يشاء، وقتما يشاء، خادوم كان يحني ظهره لسيده، ويتلقى الضربات، يقاوم الألم كي لا يبكي، لكنه بكى، كأنما لم يبك من قبل، يقال إن الشويرة سمعت بكاءه، وتكاثر الناس قريبا من سبلة الشيخ، لكن صوت طلق بندقية كان كافيا لتفريق الثائبين، ومن في طريقه باتجاه بيت الشيخ.

في أقرب فجر خرج خادوم بعائلته، قيل يومها أن الشيخ باعه إلى ثري كبير في نزوى، قد لا تعرف أن والد جدتك كان عبدا اشتراه الشيخ وأسكنه الشويرة مع ذريته، يسبّحون بحمده ويشكرونه على كل حبة أرز يطعمهم إياها، كان للشيخ خدم كثيرون حوله، منهم الشايب عديم وأخوه خصيف، هذان لهما أحفاد، تعرفهما بالتأكيد، أحدهم عميد في الجيش، وآخر مدير في وزارة الأوقاف، أعرف أنك ستسترجع الذكريات، وزمن العبودية، أخوك حمد كان يضرب الأرض تحية إذا مرّ سيده حفيد عديم، وتقول في سرك "الله يرحم أيام زمان"، وهم يقولون "الله يخلي السلطان" إذ ساوى بين الناس كما خلقهم الخالق.

ستسأل أين أخي حمد أصبح؟ أكاد أسمع السؤال في داخلك له جلجلة، سأخبرك بذلك لاحقا.. ذكّرني إذا لم التفت إلى ذلك، للحكايات مواربتها.

***

دعني أعيد إليك خبر الحكاية التي كنت تسمع حفيفها من حولك كثيرا لكنها لا تصلك جيدا، خرج جدك من محبس الشيخ، ووجد بيت خادوم مغلقا، ليس بيتا كما تظن، قد لا تعرفه الآن، مكانه الآن بيت خالد بن سليمان، كان حينها آخر بيت في الحارة، يفصله عنها مسافة عشرين ذراعا تقريبا، يمرّ عليه الرعاة كل صباح، وتقاس الاتجاهات ببيت خادوم، يقول أحدهم أن فلانا ذهب إلى السيح مقابل بيت خادوم، وأن الشرجة مرت غربي بيت خادوم، أصبح علامة.

أصيب جدّك بصدمة أفقدته صوابه، كان الناس يسمعونه ينادي حبيبة القلب، ويضرب الباب الخشبي بشدة، عاد إلى البيت العود، وفي عتمة الليالي كان يتسلل إلى بيت خادوم، هزّ الباب حتى تساقطت دعون البيت وانحنت أعمدة السمر التي كانت تحمل سقفه السعفي، ظل هناك يومين، سار إليه من سار، ورجاه من رجاه، إلا والده، لم يعرف أحد سبب موقفه، ولا أمه سلامة بنت يحيى، امرأة لا تنحني للعواصف، كأنها ليست أما من لحم ودم ومشاعر.

واختفى جدك من سرور، ترك الشويرة دون أن يدري أحد مآله.. سرور لا تتسع للعاشقين، لها شروطها الجافة في تحديد العلاقات بين العشاق، لا تسمح بحكايات الحب، ولا تتسامح معها.

كرّر خميس بن ناصر كثيرا وطويلا ما حدث في يوم الرحيل ذاك، استمر النهار ساعات ملّ الناس منها، بقيت شمسه مستيقظة تسير بتؤدة كأنها كفّت عن الانحراف من كبد السماء صوب الجبل الغربي، حكى

خميس بن ناصر أنه وحده من رأى سلامة بنت يحيى تقف على "دريشة" البيت العود وجهها في وجه الشمس.

ومضى الناس في مساراتهم، يعتادون نسيان جدك، يوما بعد آخر، تساقط من ذاكرتهم، راشد الراعي بقي يردد حكايته، ويهز رأسه، كان مقصد بيت خادوم إذ يعيد إليه الحكاية، روى راشد أنه رأى الدموع غزيرة في عيني خادوم حتى بللت لحيته الطويلة، أخبره عن ضعف حيلته، وناصر بن صالح يطوف حول بيتهم في الليل، وهو قبيلي معروف لا يقدر أن يرفع عينيه أمامه، ويكاد يقتله الخوف لو فكّر إخبار الشيخ بذلك، خادوم وذريته ملك للشيخ.

يروي راشد الراعي إذ كان يعود فجرا يحمل على رأسه صرّة كبيرة بها أوراق شجر السمر آتيا من الجبال الفاصلة بين سرور ونفعا، رأى فيما رآه حمارين أمام بيت خادوم، ركب الصغار على ظهريهما، وسار من سار على أقدامه، يحمل بعضهم صرّة في يديه، يتعثرون بالليل والعتمة في عيني خادوم، وصخور سرور الحادة في السيح الواصل بين آخر عريش فيها والجبل الشرقي، قال له الشيخ اخرج منها، ولن يراك أحد، كأن الشيخ يحدس بقدرة بنت يحيى على إخفاء الرحيل المريب.

خرج نواح مكتوم لامس أذني راشد الخبيرتين بالأصوات، لم ينبس بكلمة، عاد إلى عريشه، ألقى ما فوق رأسه تحت السمرة الكبيرة أمام العريش، خرجت بعض الأغنام تسعى في نبش الصرّة الكبيرة ما فيها من

طعام، لم يعد في السيح شجرة قريبة ترعاها أغنامه، تباعدت الأمطار، وكبرت الخشية في قلوب الناس من قحط مقبل.

***

تحط رابعة على قلبك بما أوتيت من قوة، رابعة تقول إنها بنت شيخ، لكن جسدها له احتراقاته، لم تتحمل تأجيل زواجها سنة بعد أخرى، الجسد نار تحرق صاحبها، لولا أن الصبي الذي بلغ للتو كان يرش ثلج مائه على الجمر المشتعل، صبي كان يخاتل المكان ويندس لخدمة بيت الشيخ، صبي فقير ليس لديه سوى فحولته.

صدّقت رابعة، ومكثت تطفىء فيها ما تبقى من فحولتك العتيقة، جسد لا يشبه جسد زوينه، الأجساد النارية تشعل حتى الأجساد المنطفئة.

تغذّت سرور بما تبقّى من الحكاية، لكن خوفها يمنعها من التطواف كثيرا على حوافها، اللسان المترب من جسر الحكاية يخشى السقوط في المهاوي الممتدة من طرف اصبع بنت يحيى إلى سحرها القادر على معرفة ما يتردد خلف الجدران وما في ثقوبها.. نفضت سرور عن جسدها رداء الحكاية قدر استطاعتها، وصبرها أمام مراوداتها، انطفت شيئا فشيئا في أفواه الأكثرية، لديها ما يشغلها، في ذلك العام حصدت الحصبة عشرات الأطفال، لم تترك حارة ليس بها مجلس عزاء، تعبت العجوز شيخة من وصف أدويتها الواحد بعد الآخر

للآباء والأمهات الذين ينساقون إليها بحثا عن علاج، لم يكن في حيلتها سوى البول والوسوم، لم تكن وصفاتها ناجعة كالسابق، كشأن زوّان أيضا، الموت يحصد الطفل بعد الآخر، وفي الحارات كان أنين النساء يتدافع حتى يقال إنه وصل إلى البيت العود، صعدت سلامة بنت يحيى إلى سطح البيت لتتبيّن ما الذي يحدث في سرور كعادتها.

ردد الشايب هاشل أن بكاء الأمهات الثكالى أزعج بنت يحيى، حرمها من النوم إذ كانت نساء سرور يتداعين إلى البكاء بصوت عال كلما مات طفل، كأنهن يبكين إذ يبكين أطفالهن المتساقطين تحت أقدام الحصبة الخبيثة.

أرسلت في طلب كل أطفال سرور المصابين بالحصبة، أمرت، ولا يرد أمر لها، باحضارهم إلى موقع الغافة، اشترطت أن تتركهم أمهاتهم هناك بعض الوقت، تحت ظل الشجرة التي يعرفها كل من في القرية وما جاورها.

ركضت النسوة بلفافات بالية، تفوح منها رائحة المرض المحفوفة بزناخة البول والثوم، صراخ واهن من هذا وآخر من تلك، جاء أمر بنت يحيى إلى المتحلقين أن عودوا إلى بيوتكم، لا أحد يبقى تحت الغافة غير الأطفال، في البدء خافت الأمهات، لكنهم أيقنّ بأنه لا أقسى عليهن من موت يزحف بطمأنينة وثقة إلى أطفالهن، العشرات خسروا المعركة، فليتركن لسلامة بنت يحيى أن تهب بركتها على المشرفين حواف القبور.

أخذت بعض النساء وقتا ليحضرن بأطفالهن، جئن ركضا من العقر

والحليفة والدوّارية، أتين في دروب سرور، ببكائهن، وتوجع مؤلم في اللفافات، أصوات بعضها قادر على العلو بكاء، ومنها الواهن الذي يكاد ينطفىء حيث لم يعد الجسد قادرا على إبقاء الروح فيه، هنّ، جميعا، في مهمة واحدة، كل امرأة أمنيتها العظيمة إنقاذ ضناها الذي أوجعها بتوجعه، وتسمع بكاء الثكالي فكأنها تنعى ابنها ولا يزال يتنفس في حضنها.

لم يجرؤ كائن أن يسترق النظر إلى حيث اصطفّ أكثر من ثلاثين طفلا تحت شجرة الغاف الكبيرة، أجساد هزيلة لفّت في كنابل قديمة وبالية، كان الهواء منعشا وجميلا بعد موسم جداد الفرض، صعدت بنت يحيى إلى سطح البيت العود ونظرت إلى الأطفال المسجّين تحت ظل الغافة، نظرت إليهم طويلا، لوّحت بيديها، كما قال الشايب هاشل، وأشارت بكتاب في يدها اليمنى إلى الشرق أولا حيث تفيق الشمس كل صباح ثم للغرب، هناك المغيب، وعشرات الأطفال ممددين بعيدا عن أمهاتهم المندسات بأوجاعهن وصبرهن في مجازة الدروس كأنهن اتفقن على ذلك، تجمّعن في المجازة، منهن من توضأت من الفلج وصلت ركعتين على البساط الخوصي المهترىء، وبعضهن احتضنّ بعض ليبكين ما شاء لهن أن يبكين، حاذرن أن يصعد صوت النحيب مخافة أن تسمعه بنت يحيى.

غفون جميعا، ورأين ذات الحلم، طيور بيضاء تحلق فوق غافة الشويرة، وسحابة أشد بياضا تلوّح لهن بأياد كأجنحة الملائكة، حكين لاحقا عن "المورّق" الذي يزف البشرى لهن، فتدافعن صوب باب المجازة، أكثر

من ثلاثين أُمًّا تدافعن على الدرب الضيق الفاصل بين نخيل "طوي عاصي" وأعينهن على الغافة الساكنة بصفاء غريب، جاءتهن امرأة غريبة وقالت لهن اذهبن إلى الغافة لأخذ أطفالكن..

وتراكضن، في سباق ستتذكره سرور طويلا، صوب الغافة، كانت كل واحدة تسير بهدي واضح إلى حيث طفلها، لم تخطىء أي منهن لتحمل طفلا ليس ضناها.

- لم يسأل أحد، ولم يفطن كائن، إلى تلك المرأة الغريبة.

في اللفائف القديمة أطفال يبتسمون بعافية، وفي طرقات سرور كانت الأدعية تسير صوب ساكنة البيت العود.

لكن رجفة خوف لم تكن تنفلت من أجسادهن.. وحين أغلقت كل واحدة منهن باب بيتها عبرت حاجز الخوف فتحدثن جميعا، كأن الصوت يجرّ بعضه البعض من أقصى سرور إلى أقصاها.

أي سحر لبنت يحيى، وإلى أي مدى قد يصل؟!

كلما أراد السؤال أن يكبر يتضاءل في أفواههن فيدخل حلوقهن كأنه غصة، كل الأسئلة قابلة للمضغ إلا تلك الدائرة في فلك البيت العود وسيدته، بين عادة نسوية لا فكاك منها.. وخشية.. ترتبك الألسنة.

لكن، سرور، كعادتها، حوّلت بوصلة اهتمامها إلى أمر آخر، بين نساء باكيات فقدن أطفالهن، وأخريات فرحات شفي أطفالهن.

تبادلن حسدهن بضعة أيام، ثم أخذتهن دورة الحياة إلى شقاواتها،

جميعهن خرجن مع صاحباتهن يحتطبن، إحداهن كانت في شهرها الثامن، تخرج من خيمتها قبل صلاة الفجر، وتعود بعد الآذان بقليل تحمل وقر الحطب وتحتمل أوجاعها، تدفن وجهها في الليسو القديم الذي اشترته يوم زواجها، وتبكي بمرارة فقدان من ذهب، وألم من سيأتي.

في غدوها ورواحها اجتهدت لتمرّ أمام باب البيت العود، بطرف عينها تنظر إلى نقوش حفرت على خشب الباب كأنها طلاسم كتبت على حرز علقته سنوات طوال على عنقها قبل أن يعبث به ابنها ويستخرج ما في باطنه.

تشعر بخفوت الألم كلما مرّت، وأجالت طرف العين سريعا في الباب الخشبي الذي لم تعرف الشويرة شبيها له، لا في منازلها، وأغلبها منازل طينية صغيرة أو عرشان، ولا في منازل شيوخ القبائل.

همست لجاراتها، كأنها تستودعهن سرا..

يوما بعد آخر كبرت دائرة السر، وكانت النسوة يقطعن دروبهن ليمضين أمام باب البيت العود، يختلسن النظرة، ويمضين كأن الباب واقع لا محالة في دربهن أينما يمّمن وجوههن.

تحامقت واحدة وهمّت بزيادة البركة بلمس باب البيت، وكادت أن تكررها وتخبر صاحباتها بسرّ آخر لولا أن حكّة شديدة اصابتها في أصابعها، وبكت حرقة من ألم يشعل النار في كل إصبع.

روى الحكاية ساعد بن علي، وكرّرها، بصوته الواهن، بتعويذاته التي

يزرعها على ضفاف ساقية الفلج تحت أشجار الأمبا في ضاحية السوق، يقول "الأصبع بو ما تروم عليها تكف نفسها" وتنثال الحكم القديمة وأبيات الشعر على لسانه، يكاد يضع اصبعه في عينك إذ يذكّرك بأمر الشيخ لك أن تخلع عن كتفك البندقية التي ألفت حملها منذ أن عدت إلى سرور واستوى لك نخل وشجر وبيوت، لم تر رسالة الوالي لكن الشيخ ألقى بجمرها في وجهك شفاهة، أحرقتك، أنت المتعب من حمل أشياء لا تحصى، يومئذ أحسست بكتفك خفيفا، عاريا، لا حزام بندقية يمنحه، ويمنحك، ثقلا.. كتمت غصّتك، وأعدت النظر إلى وجه ساعد بن علي.

خفّف من ثقل الملابس على رأسه، بانت لك ملامحه ذابلة وواهنة، كأنه يستعين بذلك العدد من الدشاديش على رأسه، دشداشتان على الأقل، ليفلسف الحياة، تبدو كالثقل على الرأس المعجون بالضعف، ساعد بن علي بالغ الرهافة، يمشي كظل ويتحدث كفيلسوف، ويجاور الحياة كزاهد لا تعرف سرور له شبيها..

يغرقك كدر مباغت، كأنك تستدعي حكاية أخرى، حكايتك الضاربة بقبوبها في نخيل الأمس البائد، لا بأس، سأخبرك بما يتسير من حديث جذورك..

بعد سنوات ليست بالقصيرة، عاد جدك ناصر بن صالح، لم يكن وحده، كانت معه زوجته، وثلاثة أطفال، لم يصدق أحد أنهم أولاده، حسبهم الناس عبيدا اشتراهم صغارا، لكنهم عرفوا سريعا السبب، بنت

خادوم تحمل آخر على خاصرتها، وتسير خلف جدك، لم تعرف سرور ساكنا في البيت العود إلا هالة سلامة بنت يحيى، والد جدك اختفى عن الأنظار، لم يسمع به أحد، في البيت أو ارتحل.. آثر ترك البلاد هربا من سيرتك.. ومسارك.

جدك في حيرته يقلب عينيه ذات اليمين وذات الشمال، استعاد شجاعته محاولا رفع صوته ليسمع المقتربون منه أسماء أبنائه، أشار على صاحب السنوات الست وقال لهم إنه عمر، نظر إلى المتحلقين حوله يتكاثرون ببرود تام، كأن الأمر لا يعنيه، له عينان جميلتان كعيني أمه لكنه حمل لونها، وقال جدك عن الآخر إنه سعيد، يبدو أصغر من سابقه لكن جدك لم يقل كم عمره، بشرة بقيت بينه وأمه، أخذ منها أنفها الأفطس، والصغيرة فاطمة، بدت في سنواتها الثلاث خائفة ووجلة مما يحدث، شعرت بما عليه أبوها من مشاعر تختنق بمن تحلقوا وتداعوا، الغافة تتطوح بأغصانها مع هواء الغربي إذ يلفح الشويرة لم يستيقظ النائم في حضن أمه، ولم يره أحد في طيات القماش.

.. وكان ذلك أبوك هلال.

يومئذ أصيبت سرور باضطراب، لم تعد القرية المستكينة لحكاياتها البسيطة من نوع ميلاد جديد أو موت آخر، عدا ذلك فهي تعيش بصمت عجيب، تحاول الاقتيات على ما تجده من حكايات عابرة، وقد تتلقف خبرا من البيت العود لتمضغه حينا، قدر ما تسمح به سلامة

بنت يحيى، كل حارة في سرور سهرت مع خبر عودة جدك زوجا لبنت خادوم ومعهما أربعة ابناء، ويلحّون في سماع وصف أعمامك الثلاثة وعمتك فاطمة، والذي لم يروه من وراء القماش نسجوا له في مخيلتهم ألوانا وأشكالا.

كانوا نسوا حكاية جدك، اختفى من الحارة، وضعته سرور على جانب خفي من ذاكرتها لعلها تستعيده عندما يعنّ لها ذلك، تفرعت الحكايات بجدك وغيبته، منهم من قال إنه لحق بوالده حيث لا يدري أحد، سافر نحو مجهول يكاد يكون معلوما لفرط ما مخضته الألسن، إلى زنجبار أو الكويت، أو بقي أسير غرفته حيث تدمي رسغيه سلاسل بنت يحيى، بحروزها وطلاسمها، فاقد عقله، أو روحه، أو بصره، تنوعت ظنونهم، بعضهم قال إنه هام على وجهه كقيس بن الملوح حين ذهب إلى الصحراء معذبا بحب ليلاه، وليلى جدك كانت بنت خادوم، عشقه كان أقوى، كانت هي بلون عنترة بن شداد، وجدك بلون عبلة، هكذا وصف حمدان الحكاية، وطرح أبياتا من الشعر قالها عنترة.

قالوا إن جدك هاجر إلى دبي، اشتغل فيها حمّالا على ظهر سفينة، شاهده أحدهم يقص على الجالسين في السوق بعد المناداة اخبارا تتشابه مع الأخريات إنها قابلة للتصديق، ولاتصديق أيضا، أحدهم وصفه بأنه في قطر، يعمل "بيدارا" في مزارع أحد شيوخها، وقال آخر إنه في البحرين، يبرر حكايته ليقرب أمر تصديقها أنه ربما ترك قطر وذهب إلى البحرين، شاهده في السوق يعمل صبيا مع تاجر بحريني معروف.

لم يتوقع أحد أن جدك لحق بخادوم المنفي من سرور بحكم الشيخ وجبروته، حكاية بعد أخرى سأسردها عليك، لا مناص، هكذا شروط الحكاية، أن تقال كاملة قدر المستطاع، نغالب غصّاتها لنبلغ أول مدارج كمالها.

هكذا استيقظت شهوة الحكاية على ألسنة أهل سرور، وحّدت الحكاية قبائلها، نسيت ثاراتها، وجوعها.

نسيت قحطها، والفلج يزحف بماء يذوي في الساقية يوما بعد آخر، يجتهد ليهدهد أعشابها تاركا نخيلها للريح تعبث بالسعفات اليابسة.. والسحب لا تبين إلا لتهرب مسرعة من سماء سرور، قال عبدالله بن أحمد إن المنكر زحف كثيرا وكان على الله معاقبة هذه القرية لما فرّطت في جنب الله، صدّقه الجالسون على دكة طينية في السوق، وتوقعوا أن يسوق الله عليهم ريحا صرصرا عاتية لما شمّوه من روائح منكر بدأت تنتشر من هذه وتلك.

.. ونسيت سرور المهاجرين منها، وهم يغصّون باغترابهم في منافيهم القريبة البعيدة..

نسيت قصة حمار منصور الذي وجد مقتولا برصاصة لم يسمعها أحد لأن القاتل غرس البندقية في دبر الحمار وقذف بالرصاصة في الجوف الكاتم للصوت.

نسيت، وكم من أشياء نسيتها.. لأن جدك عاد، معه بنت خادوم،

وأربعة أبناء، أبوك وعمّاك عمر وسعيد، وعمتك فاطمة.. وآه من فاطمة التي حملت جنونا لم تعرفه الشويرة، ولا سرور، ولا القرى التي من حولها، سآتيك بحكايتها، ربما تعرفها، ولكن كما سمعتها من آخرين، ربما أسقطوا بعضا من مهمّها، لكنني سآتيك بما أراه اليقين، يقين الحكاية، عليك أن تتمسك بعمرك كي يكون هناك متسع، وأن تحتفظ بتماسكك لتبقى قادرا على تحمّل ألم ذر المزيد من الملح على جروحك العميقة والعتيقة.

في جلسة العصرية أمام دكاكين السوق لم يستطع أحد مداراة شهوة الحكاية، تلفتت الأعين باحثة في الأعين عن أي صلة قرابة قد تجمع جدك بأحد (الشيّاب) المجتمعين كل عصر، وحتى صلاة المغرب تحت (لمباة) السوق الكبرى، بجوار دكان خلفان بن عبدالله، ليمضوا في نمائمهم المعتادة، تحدث ود سقّاط بداية، ألقى بجملة محايدة، "..ورجع خلفان بن صالح"، التفوا مرة أخرى، الوجوه تبحث في الوجوه عن نسب، أو صحبة، أو محترف وشايات كعبدالله الأعرج، اعطاهم القدر ما يشتهون، قال مسلم الدمير: "السخونة زينة"، غامزا إلى الجسد الناري الذي من جرّبه لا يستطيع الصبر دونه، وليحترق العالم من حوله كيفما يشاء.

"رجّال قبيلي، موه يبغالها خادمة؟!"، ألقى نصير عبارته، لم ينتبه لدخول ود هاشل حلبة الحوار العصراني، لم يعلق الشايب هاشل

بشيء، في ذلك الزمان لم يكن الأمر يثير الحساسية، قد يستوجب بعض الاحترام، لا أكثر.

تلك جلسة، تعرفها، وأخرى لا تريد الاقتراب منها، تعرفها الشويرة جيدا، جلسة العصر أمام دكان علي الهندي، بعد أن تخلى العم سليمان عن دكانه القديم، والذي تهاوى على ما بقي فيه مخزّنا، علي الهندي يعرف رجال الشويرة وأبناءها واحدا واحدا كما لا يعرفون أنفسهم.

دعني أذهب إلى الماضي الذي يعنيك، فالحاضر لا يثير فضولك كثيرا..

لم يخرج جدك من البيت العود خمسة أيام، كان الناس يتساءلون عنه ليشبع نهمهم وفضولهم، معرفة المزيد عن غيابه، مندفعين أكثر لأحوال العاشق، ولم يعرفوا حبا كهذا في حياتهم، لم يعبروا عن مشاعرهم قط، تجاه زوجاتهم أو أطفالهم، فكيف بهذا الحب المجنون، لم يسمّه أحد بالحب، كانت المفردة غائبة عن ألسنتهم.

"ود صالح ما لقي إلا بنت خادوم يعشقها؟!".. عبرت الجملة ألسنة نساء في القرية، وسارت في حلوقهن وهن يعبرن الطريق المحاذي لفلج الحيلي، فجأة شعرن بالخوف، تحركت سعفات النخيل بقوة، سقط كثير منهن، ركضن بسرعة يحتمين بمسجد (صحرن) كاتمات بكاء يضغط على صدورهن بقسوة، أقسى من حياتهن بمسافات متراكمة.

***

في الحياة قسوة تخطف المشاعر من الروح، صراع يبدأ من أجل البقاء، قبل مطلع الفجر تؤوب النسوة قاطعات سبل الجبال وعلى رؤوسهن حمل يضغط على العنق، وللتخفيف من آلامهن يطلقن تعويباتهن، بكاء يغنّى، يسري في الفجر، يسمعه السائرون في قوافلهم، والعابرون للجبال، وحينا قبل أن تصل الأقدام إلى حواف سرور يحدث أن تلد إحداهن، فتولّدها البقية، ويمضي الركب ببكاء مكتوم في أغلب الأحيان، لكن إطلاقه لم يكن غريبا، النسوة، جميعن، تشاركن مسيرة البكاء، في قلب كل امرأة مواجع لفقدان ابن أو أخ أو زوج، أو ما لا يحصى من المواجع، لكنهن لا يدركن حجم الخيبات المتراكمة، كأنهن يسرن على المسار الاعتيادي للحياة، لا يتخيّلن حياة أخرى غير هذه، ما بعد الموت حياة يتركنها لمجهول يسردن عليه إيمانهن بالقضاء والقدر.

وجدت النسوة على شفاههن سيرة جديدة، بنت خادوم العائدة مع ولد سلامة بنت يحيى، كانوا لا يذكرون جدك الكبير إلا نادرا، يكفيهن من البيت العود سلامة بنت يحيى، امرأة لا تطحنها الحياة مثلهن، في البيت العود وبيت الشيخ نسوة لا تجلدهن الأقدار كما تفعل معهن، زادهن قناعة دائمة أن القدر وحده من أراد لهن ذلك، وعليهن السير في ممشاه العتيد.

عاد جدك، وعادت إلى سرور حكاياتها، ما ينسي سكانها بعض الألم لما يفقدونه مع جريان الأيام على أعناقهم، حيث يودعون مقبرتها طفلا أو طفلين، أو يودعون عابرا إلى البعيد يدركون أنه قد لا يعود قريبا.

مرّ جيش الإمام بالوادي الفاصل بين سرور وجبلها الغربي، أقام ليلتين استراح فيهما، اشتعل الوادي بزخّات الرصاص يتسابق الرجال إلى إظهارها، كانت الشويرة ترقب من بعيد مروره، وحينما عاد الشيخ من الوادي، مودعا الإمام الذي غادر جوار سرور التفت قليلا إلى البيت العود، وقف تحت الغافة متأملا، من حقه معرفة ما يدور في حارته، في كل القرية.

حثّ خطاه أكثر حين عبرت بصره سلامة بنت يحيى، هل من حق الشويرة أن يكون بها بيت أكبر من بيته، هالة أكبر من هالته؟ تساءل متخذا الطريق إلى السوق، تتراكض إليه مجموعة من الرجال يقبّلون يديه، وفي أياديهم يضع قروشا لا ينظر إلى لونها ليتبيّن قيمتها، حسبه أنه يعطي، عليه المحافظة على شيء يعرف ثمنه، قروش سلامة بنت يحيى لن تسحبه منه.

***

استرح قليلا أيها المتعب، واسترخ.

بعض التذكار ألم، بعض التذكار جحيم.

المرأة الغريبة في صدرها بقية من حليب لا يشبه حليبا آخر، ستأتيك في خطوة ما، وتعصر ثديها في حلقك، تمنحك عقدا آخر من العمر لتعيشه، وأنت لا تدري لماذا كل هذه المعاناة من العيش؟ لو تعود رابعة سيكون للمكان معنى، ستعود مغامرا وثائرا كما كنت تتسلل

أنصاف الليالي باحثا عن ليلة ساخنة يكون للجسد فيها معنى، يعطي المكان معناه.

وسرور، ، تبحث عن معنى كل يوم، لا تكفّ عن البحث فيما يمنحها حياة متجددة، كما هو اليوم التالي لعودة جدك.

نامت سرور ليلتها تلك مفتشة في الحكاية عن حكايات، وفي الصباح التالي بدأ الأطفال العائدون يخرجون من البيت العود للعب في الساحة الفاصلة بين مسجد الدروس وأول بيوت الحارة، يحومون حول حفرة التنور القريبة من الغافة، تجنبهم أبناء العمومة والخؤولة، لكن الصغار اهتدوا إلى سبلهم، اعتادوا على الشويرة، وتسربوا إلى حارات سرور، كأنهم يبحثون عن خطى ضائعة نسيتها جدتهم سلامة بنت يحيى، ولم يهتد إليها جدهم خادوم.

كبر صراخهم وضجيجهم، وتكاثرت الشكاوى في الحارات بسبب ما يحدثه القادمون من شقاوات تستفز جيران البيت العود، امتدادا إلى بقية بيوت سرور، لم يكونوا يشيرون إلى شقاوات أبناء جدك ناصر بن خلفان، بل إلى ما يفعله في أبنائهم "أولاد بنت خادوم".

لم يتجرأ احد التصريح بذلك، بل حاصروا القول وحصروه في أضيق دائرة ممكنة، بدت سلامة بنت يحيى موضع تساؤل أثارت زوابعه الشويرة، ليصل إلى حارة العقر على طرف الوادي في غمضة يوم.

رأوها بنت خادوم تمشي مطأطأة الرأس، لم يروا وجهها، كانت تضع

النقاب على كامل الوجه، للمرة الأولى يرى أهل سرور امرأة تغطي بالسواد كامل وجهها، لكنهم عرفوها، بنت خادوم، هجم هواء الغربي على النقاب المحكم بثبات على وجه المعشوقة فاستبشر المتفرجون خيرا في أن يروا ملامح المرأة التي ستدخل البيت العود بعد خطوات، ليحددوا بوصلة اتجاه الملامح على الوجه الداكن المورّث الأبناء من حوله لونه وملامحه، كيف تبدو بعد سنوات عشر من الغياب؟!.

انفتح جرح الحكاية مرة أخرى على دم لم يكن في حسبان أحد، كل الاحتمالات مضت بهم إلى البعيد، إلى مهاجر متعددة قذفت الشاب العاشق إليها، لكن أن يلتقي المعشوقان، ساكن البيت العود، وساكنة بيت السعف، لم يكن في حسبان أي سروري.. والزمان الذي كان ليس كالزمان الذي سيكون.

بين نزيف الحكاية لم يسأل أحد عن بقية العائلة المنفية من سرور، كأنها عادت كلها إذ عادت ابنتها الشقية المتسببة في خروجها من حائط بيت الشيخ.

توقعت سرور أن تنتقم سلامة بنت يحيى، أن لا تقبل بمرور الحكاية هكذا، أن يدعو الشيخ جماعته لاجتماع في سبلته، لكنه سار إلى الإمام، ومعه عدد كبير من رجال القرية، سرور فارغة إلا من حكاية العائدين.

وخدام الشيخ ينقلون إليه الحكايات وما يفلت منها، كما يتراكض بقية رجالها، يفدون بإخلاصهم على أجنحة ما ينقلونه إلى الشيخ القابع في جنته الأرضية، وضع بيته على سفح جبل، نصف البيت في الأرض

ونصفه معلق على ناصية الصخر، وسرور تحت أقدامه تغرف من حياتها ما يتيح لها قدرها.

وهناك، تحت الغافة تكاثر فضوليون محاولين الظفر برؤية يعيدون تشكيلها حكاية بعد ذلك، رؤية العائد مع محبوبته، أو المحبوبة الآيبة بأبناء ينحدرون من نسل البيت العود، لا من بيت السعف..

تكاثرت العيون تحلق في البيت العود من بعيد..

لعلها تخرج مرة أخرى فتشبع فضول من لم يرها..

لعله يخرج فيتأملونه..

فجأة حلّ خوف مع ضجيج الأقدام التي تبعثرت في الدروب، طلق ناري أصاب جذع الغافة، عرفوا فورا أن سلامة بنت يحيى أطلقت إنذارها نحو المتحلقين تحت ظل الشجرة الكبيرة، تحركت أفرعها مع عزف الرياح الهابّة بشراسة في عصرية سرورية راجفة برصاصة أصابت جذع شجرة، كان يمكنها أن تصيب جسد إنسان، رصاصة بنت يحيى لا تشبه أي رصاصة أخرى، وسرور تعرف مئات الرصاصات تنطلق كل حدث في سمائها.. يندر في البيت الطعام، لكن المحزم عليه أن يبقى ممتلئا.

***

حينما ولدت أصرّ جدّك أن يسميك باسمه..

ورفض والدك هلال الأمر، كأنه لا يريد لاسم ابيه أن يتكرر، وقد أورثهم ما اعتبروه نقمة تضرب عرق السلالة، كان جدك فخورا بشجاعته، لم ينحن خجلا ولا مرة أنه اقترن بعشقه، سبق عصرك هذا إذ أجبره العشق على الإيمان بتساوي البشر.. رغم أنف الأعراق والألوان.

كأنه قرأ ما ستفعله لاحقا مع رابعة، ربما كان معجبا بأبيه من حيث لا يدري أحد، وأدرك أنك ستجبن عن تكرار فعلة جدك، وستخرج رابعة من سرور دون أن تتبعها، ولك نسل حملته رابعة، سيلاحقك كلعنة، وعمرك يمتد ويتمدد ليترك فرصة لكل اللعنات أن تأكل منك.

لم تحمل اسم جدك، لكن الملامح أتعبتك، خوفك من شيء ما، سر مدفون يعبث برئتيك كلما أهدتك سرور نسمة صباحية، في عينيك تسكن جدتك بنت خادوم، في روحك رائحة زهر الليمون تنثره ضواحي سرور يخبرك أنك حفيد بنت يحيى.

لم تأخذ من أبيك صفاء لونه، وحدّة أنفه، وهو الذي قيل إنه يشبه والده خلفان بن صالح، أو جدته سلامة بنت يحيى، اللون المائل للبياض، والعينين الصافيتين كأنهما لم يعرفا الحزن أبدا.

وأنت تعبر ضاحية أولاد مسعود كانت عين عبدالله بن خلف تتعقبك، في كل مرة لها ذات الأثر، العين الضاغطة على غمزة باتجاه حسب أنك لن تراه، لكنك رأيته، وتلقفت خنجره الساخن على جلدك المشوي بنتاج

السلالة والشمس الحارقة التي كنت تعمل تحت جمراتها تنبش في منابع فلج الحيلي، "وقبة" بعد أخرى تنسل بينها ضاربا بمعولك حتى يسير الماء بسلاسة إلى قرية أطعمتك مرارات لا تنفد.

تضرب بقوة في الصخر ليتفتت فينظر إليك عقيد الفلج سعود بن مبارك بإعجاب لقوتك، عندما ترتفع شمس الضحى تخرج مع صحبك من "وقبة" الفلج لتتناولوا فنجان قهوة مع تمرات تحصدونها واحدة بعد أخرى في أفواهكم الجائعة، تتذكر يوم أن فاجأكم سعود بن مبارك بصحن خبز ومعه دلو لبن، وأكلتم كما لم تأكلوا من قبل، وضحكتم كما لم تعرفوا الفرحة من قبل..

حينها، أتذكر جيدا حكايتك، أصررت على غسل يديك المبيضتين من سيل اللبن على سوادهما من الفلج مباشرة، وهبطت الوقبة، وفي كل صخرة تهبط منها كان أثر بياض دال عليك، يا للمصادفة، سميت الوقبة باسمك، وقبة ود هلال.

في سنوات لاحقة أصبحت الوقبة[14] أثرا، يشار إليها كعلامة، يعدّون مسألة إصلاح الفلج وتنظيفه، قبل وقبة ود هلال أو بعدها، أو وقبتان بعد وقبة ود هلال، أو ثلاث قبلها.

ساعد بن علي فلسف الحكاية، روى لك حكاية قديمة، عن الأرغفة الثلاثة والمسيح عليه السلام.

(14)الوقبة: حفرة تشبه البئر يمر ماء الفلج تحتها، وتستخدم في تسهيل عملية إصلاح ساقية الفلج الممتدة نحو منابع المياه الأصلية.

حام حزن غريب فوق رأس ساعد بن علي، ولم يكمل حكايته، كأنه شعر بما سيحدث قبل وقوعه، انطلق صوت رصاصة، هادر فوق قدرة أحد على التكهن بنوع البندقية التي أطلقته، أعقبتها صرخة كانت سرور محقّة عندما اعتبرتها زمنًا تقيس به، ما قبل الصرخة، وما بعدها.

صرخة حكى عنها ساعد بن علي أنها أبقت نخيل سرور رافعة سعفها يومين، لم تتحرك خوصة في سعفة نخلة، لم ير الناس فأرا أو قطا من تلك التي ألفوها تسير بجرأة النهار وهسهسات الليل.

لم تفش الصرخة بسرها، ولا طلقة الرصاصة أخبرت عن الاصبع الذي داس على الزناد أو قبلتها التي اتجهت إليها..

طلقة مختلفة، لرصاصة لها صهيل موجع، لا تتقنه أية رصاصة أخرى، وسرور زخم هائل من الرصاص، أخبرتك، وأنت العارف، أن بطن الرجل خاو فيما أن بطن بندقيته ممتلئ دوما.

***

تبحث عن عينيك في موطن الحكاية القديمة، حسنا، لأخبرك بما علق على باطن الحكايات من أثر كتبته الشويرة وحفظته سرور..

خرجت أم جدك، سلامة بنت يحيى، وقفت بأنفة المرأة وكبرياء القبيلة، التفتت الأعين صوبها تستبين أثر الريح التي ستندلع، لا أحد

باستطاعته تحديد قوتها أو وجهتها، لكنهم ترقبوها بتوقع مشهد لن تنساه الشويرة ما بقي فيها نفس إنسان، لاذت بالصمت لحظات، ثم اقتربت، وجد الناس أنفسهم يفسحون سكة صغيرة بين أجساد البشر المتحلقين، ليسوا كثيرين لكنهم تجمعوا في حلقة صغيرة كافية لحجب الرؤية عن ما في بؤرتها، تحرك جدك نحوها، مدّ يده ليصافح أمه، يقبّل يدها، لكن يده تيبست، وشق عليه أن ينحني ليقبّل اليد التي لا تشبهها يد في الشويرة، أو في جميع حارات سرور، اليد تناولت يد فاطمة، وانقاد القادمون في مسارها، باتجاه البيت "العود".

ليس في يقين أحد من رجال سرور أنه شاهد سلامة بنت يحيى حقيقة ماثلة أمام عينيه في ذلك النهار، سلامة بنت يحيى تعرف كيف تضع هالتها في قلوب السروريين، وتسحب حتى مجرد التذكر أنهم رأوها، لا أحد يوقن أنه رآها، لا أحد يشك في أنه لم يرها.

لا تجزم امرأة بأنها رأت بنت يحيى رغم أن لوحة العودة منقوشة بالقرب من الغافة، شاهدتها نخيل طوي عاصي، ونوافذ البيت العود، لو أن أحدهم حكى ذات غرور أنه شاهد سلامة بنت يحيى لوجد أن لسانه يلوك ما يشبه الكذبة، فيتردد، ويتوارى، حتى لا ينطق شيئا.

كانت بنت خادوم، جدتك، أشبه بدابة مطواع تنقاد إلى حيث يريدها صاحبها.

مشت، وجدك يسير بوجه يكاد يشبه وجه جدتك عبوسا وسوادا،

كبرت لحيته السوداء، تكاد تغطي معظم وجنتيه، سالت على صدره، بدا غريبا وذابلا، على وسطه محزم جلدي غير ممتلئ بالرصاص، وبندقيته بدت هرمة، لا يبدو أنه فوجئ بأمه تدعوه إلى البيت، لم يسألها أين والده الغاضب عليه، ولم يهتم إن كانت غاضبة عليه، أم هو الضنى الذي لا تتنكر له الأم مهما فعل؟.

سارت الأرجل متعبة، ودّعت ظل الغافة الكبيرة، سلكت الدرب الذي لا يضيع سائره إذ يتوجه إلى البيت العود..

قبل أن تصرخ بندقية بنت يحيى بإنذارها الرهيب تبعهم بعض من أهل الحارة ومن تجمعوا ليروا المشهد، لتصدق أعينهم مشهد دخول بنت خادوم إلى البيت العود، كانت جدتك أشبه بتمثال نحت من صخور المكان، غير آبهة بما يحدث، كأن الأمر لا يعنيها، هي تابعة لا أكثر، تسير حيث يأمرها زوجها، أو بالأحرى حيثما يمشي، خيال لا علاقة له بما يحدث، مغطى بالسواد، وعلى الناس روايته كخيال عابر.

انفتح باب البيت العود أمام سلامة بنت يحيى، وفاطمة الصغيرة قابضة عليها يد لا تنسى قبضتها، دخلت سلامة وخلفها بقية الآيبين، ومع دخول آخرهم انغلق الباب، كأنما هناك يد قاربت بين ضلفتيه، ولم ير الفضوليون إلا باب البيت العود يلزمهم العودة إلى مساربهم التي أتوا عبرها.

وحينما اجتمعوا قريبا من الغافة تزحف الحكاية قدر ما تستطيع على ألسنتهم باغتتهم الرصاصة المنبعثة من مكان يعلمون جيدا قوة سحره،

تفرقوا، لفظتهم الطرقات واحدا بعد آخر، انسلّوا إلى عرشانهم يبادلون زوجاتهم النظرات عمّا حدث، في فم كل منهم كلمات لا تستطيع الخروج من اللسان، قالت العيون كل شيء، وفي الفجر وجد كل واحد منهم ديس حلوى أمام باب عريشه أو بيته الطيني، كرر البعض أن امرأة كانت تضعها، امرأة لا يعرفونها، لكنها ليست سلامة بنت يحيى، سأخبرك، كانت تلك المرأة الغريبة التي أرضعتك ثديها، قال خميس بن ناصر إنه رأى الديس يطير حتى يستقر أمام كل باب.

***

يرتفع البيت العود عن الأرض طابقين، سطح كل واحد منهما مرتفع بما يظهر البيت كأنه من أربعة طوابق، لا أحد يعرف ممّا يتكون البيت العود، ولا ساكنوه باحوا بشيء، يتخيله الناس من خلال نوافذه، ست باتجاه الغافة غربا وبجانبها طوي عاصي، وست صوب الشرق حيث بدايات السيح وما تناثر من بيوت اختلط فيها الطين بالسعف، وست من الشمال ومثلها باتجاه الجنوب، اربع وعشرون نافذة تتقاسم الجهات الأربع، يروي خميس بن ناصر أن غرف البيت العود ليس بها جدران، تقسّمها بنت يحيى كما تشاء، مرة تتركه غرفة واحدة فسيحة، ومرات ترسم بأصبعها خطا على أرضيته فلا يغدو أحد قادرا على رؤية الاتجاه الآخر كأنما جدارا ينبت فجأة، لا يراه أحد، لكنه يمنع الرؤية، والطابق الثاني لا أحد يصعد إليه سوى سلامة بنت يحيى، ومن تأذن له فإنه لا يرى سوى القليل مما تسمح له به.

في الطابق الثاني تجتمع بنت يحيى مع جنّها، وفية لهم لأنهم جاءوا لها بالبيت، ويجيئون إليها بما تحتاجه، وما توزعه على أهل الحارة وسائر الحارات من طعام.

***

مواجعك تشقى بها وحدك.. وسرور لا تلتفت إليك، والشويرة كما لا تعرفها، تراها بعين فؤادك، وشقي أنك لا تراها بعينيك، هناك البيت العود، وعلى أقصى بقعة، في الحارة البعيدة غرفة صغيرة لا تدري ماذا فعلت السنوات بها، وقد فعلت في صاحبتها ما يشقيك أكثر.

سألت عاملك البنجالي عن الشويرة، وعن البيت العود، يعرف دكان علي الهندي ولا يتذكر أين يقع دكان العم سليمان، يصف لك البيت العود بالخرابة، تعيد عليه وصف البقعة التي يحط عليها، لكنه يعيد عليك نفس الوصف، لا تتجرأ أن تسأل أحدا غيره مخافة السخرية.

كنت قادرا على السؤال، اليوم أنت عاجز عنه.. لا تروم نطقه، مع أنه يثور في داخلك بركانا عصيا على الهدوء.

فكيف بالإجابة، تحرق ذاكرتك؟

ذات صبيحة، على ساقية في السوق أخرج ساعد بن علي دفترا من دشداشته، وقرأ وصفا للبيت العود، أن غرفه منقوش عليها آيات من القرآن الكريم، وزخارف على جدرانه، لم يعرف أحد المتحلقين ما

معنى زخارف، سألوه عنها، لكنه مضى في قراءته، قال إن غرفة بنت يحيى لا يدخلها أحد، بها باب يؤدي إلى ممر تحت الأرض يوصلها إلى حيث تشاء، تقول نيتها وتدخل باب الممر، تذهب إلى مكة المكرمة والمدينة المنورة، مرة تحج ومرات للعمرة، وتلتقي جنّها من خلال ذلك الباب.

عندما سمع المتحلقون ما في كتاب ساعد بن علي قال خصيف إنها كانت تعرف أين ابنها، وما حدث له، وتعرف أين زوجها، وبقية الذين افتقدتهم الشويرة من سكان البيت العود.

عصفت ريح قوية بالسوق، رأوا أن جدرانه تكاد تطير من أساساتها، انكسرت ركنة كبيرة من أحد أشجار الأمبا، كادت تسقط على الحاضرين، ملأ الغبار أرجاء المكان، لم يروا بعضهم، بعد حين من النهار مرّ ربيّع على السوق ليجد مجموعة من الرجال في نوم عميق، أيقظهم، نظروا إلى بعضهم البعض في ذهول، تمسكوا بصمت متواطىء، وبالكاد تحركت أقدامهم مبتعدين عن السوق، وفي الليل كان حمدان يطوف بيوتهم يوزع عليهم حروزا تقيهم الحمى والرعشة التي لا تفارق أجسادهم.

اختلس النظّارة ما استطاعوا من البيت العود، من خلال النوافذ، لكن لا علامة تهديهم، ولا إشارة تهبهم لقمة لجوع فضولهم.. كما نسوا لهفتهم للإمعان في وصف البيت العود، مكتفين بما تخيلوه، وتصوروه الحقيقة.

***

سأعيد عليك ما تيسر من أحاديث..

في ليلة تناقلت سرور حكايتها طويلا، انشقت الأرض عن البيت العود، قالوا إن والد جدك جاء به من مكة، ورأى خميس بن ناصر أنه بالسحر جاء، هبطت به سلامة بنت يحيى من "الشاغي"[15] تزحف به حتى وضعته في قلب الشويرة، لم يكن من بيت هناك، كان سكانها بضع عشرات يندسون بين ضواحي النخيل، لا يجرؤون على سكنى العراء، وكانت الشويرة عراء سرور، مكشوفة دون نخلة تظللها، قالوا إن الغافة الشامخة على طرف ظل آخر نخلة في القرية منذ سنوات لا يعرفها احد كانت آخر عهدهم بالمكان، تطل على نخيل طوي عاصي في زاويتها الجنوبية الغربية.

يوم حطّ البيت العود على الأرض الخلاء شهق الرعاة، وتناثروا بين قطعان مواشيهم يكبّرون ويستغفرون، خرج لهم والد جدك بعمامة بيضاء كبيرة ولحية سوداء طويلة، وأطعمهم من جوع وآمنهم من خوف، أدخلهم إلى البيت العود، دلّهم على ثلاث غرف أمامها ليوان طويل، وقادهم إلى الطابق العلوي، هناك غرف أخرى، شرفة باتجاه الغافة، أعلى من نخيل طوي عاصي، أكلوا من دست حلوى ضخم بحجم مرجل، ثم غفوا، وحينما صحوا كانوا في بيوتهم، أو تحت ظل شجرة سمر، رأوه حلما عابرا، لا يستوجب حتى سؤال عبدالله بن أحمد عن تفسيره.

(15)الشاغي: ممر صغير بين جبلين.

هل تتذكر عبدالله بن أحمد؟ رحل مع من رحل، ترك كتبه القديمة ملفوفة بالغلاف القماشي يحميها من الغبار وعاديات الزمان، ترك كنوزه، وحبره، وأقلامه التي ينسخ بها تلك الكتب، كم من الصكوك كتبها لك؟ وقد تكاثرت زياراتك إليه يحيل لأملاكك ضاحية جديدة تشتريها؟ تجده يكتب ممسكا القلم بطريقة تضعه بين اصبعه الوسطى، تتأمل خطه الجميل كنقش بديع.

عشرات الصكوك الشرعية في مندوسك الخشبي تتأملها كلما آلمتك سرور بغمزة أو إنكار، رحل كاتبها، تكاد أطرافها يصيبها البلى لفرط ما تتفحصها، رفضت فكرة تحويلها إلى ملكيات تعطيك إياها الحكومة، تخشى على كنوزك من حالة خداع جديدة، لا ثقة لك في هؤلاء.

لا زلت تشعر بجمرة غمزة عين عبدالله بن خلف ملقاة في قلبك تتكاثر وتتناسل وتغدو أفاعي تلقي جمر سمومها، وأنت من سلالة البيت العود، البيت الزاحف من فوق الجبل يقوده والد جدك كأنه شاة صغيرة يدفعها إلى قلب الشويرة، أو هي فعلة سلامة بنت يحيى، ولكنك من سلالة خادوم، ابنته جدتك، أينما تفرّ سيحاصرك النسب، كلما سمعتهم يقولون "العرق دسّاس"، تحسست عروقك واحدا بعد آخر، كم بينها من عرق سيدسّ ما تخيّره جدك لنطفته يوم أن عشق وانحاز لمعشوقته..

حين حملت زوجتك زوينة بعد سنوات طوال انتظرت مجيء حامل سلالتك، كما فعل إخوتك، كما فعل أبناء عمّيك وعمّتك فاطمة،

تذكر فاطمة جمرة تشق روحك، خاطئة أو مجنونة، عبث بها السفهاء، من تلك السلالة التي تود التبرّء منها، ولم تبرد قلبك الرصاصات التي أفنتهم واحدا بعد آخر، لا أحد يدرك أنك وراء ما حدث.. لكنك تدرك حدّ الانجراف ما وراء دم ودموع رأيتها تقذف في وجه سرور، ووجهك، أينما سرت، وبقيت.

حملت زوينة، وكانت مخاوفك كبيرة، الخوف من ذلك العرق المندس كأن خادوم هناك يتحكم في الأجنّة، يعطيها لونه وشكل أنفه، إرثه حيث العشق ينبت كعشبة غير مرغوب فيها، تسأل نفسك: هل العرق وحده ما يعذبني، أم هواجس نطفة نبتت خفية ولم يقدر جدك التنكر لها؟!

استغفرت الله كثيرا، تستغفر ليس لإحساسك بأنك خدشت مشيئة الخالق، ولكن حتى لا يعاقبك بما تخشى منه، رابعة تدس لك ما يربك خطواتك أكثر، كأنك سائر على درب من نار تلتهب حينا بعد حين.

.. وجاءت رقيّة، ولم يأت حمد كما أردت وكررت حلمك ودعاءك..

كنت كباسط كفيه إلى ماء "الفلج" ترصد العابر بشفافية بين الجدول والجدول، تقاوم تداعي الذاكرة، تنظر إلى الماء ويدك تحرك اندفاعه إلى ضاحية الهناقرة، لم تر منها سوى العسقة الوحيدة الباقية في كل نخلة حقك كبيدار يروي تربتها بماء الحيلي وعرقك الذي تعرفه كل نخلة

صعدت جذعها، بجسد صحيح أو جسد تأكله الحمى، لم تعد تحتاج إلى ضاحية الهناقرة، لأنك هنقري يمتلك عشرات الضواحي.

تفكّر في زوينة، أخذوها إليك كما يفعل بأية فتاة في سرور، تتذكر أنها أخبرتك بعد سنوات يوم أن كانت تأكل الخبزة المغموسة باللبن، لم تكمل الرابعة عشرة بعد، قالوا لها اليوم ملكتك، عقد قرانك، ستكونين زوجة لواحد من أولاد هلال الشويري، وستلحقينه إلى البحرين، لم يحددا لها أي الأبناء سيصبح زوجها، واحد من أبناء رعاة البيت العود، الناس لا يزالون يعتبرون البيت العود قبيلتكم التي لا يعرفون سوى أنها الشويري، نسبة إلى الشويرة، أو أنكم جئتم بالشويرة مع جدة أبيك سلامة بنت يحيى.

أكملت زوينة ريوقها من صحن الخبز واللبن، وكأن الأمر لا يعنيها، مجرد لعبة يلعبها الكبار عادة، لعبة الزواج، وبعد بضعة أيام حملوها إليك على ظهر حمار حتى مسقط، ومن هناك ركبت السفينة، لا تتذكر الباقي، أو أنك لا تريد أن تتذكر، وحدها فرحتك بقيت متوهجة كلما شعرت بأن حلمك تحقق، وأنك تزوجت من سرور، امرأة قادمة من سرور، لعله المهجر يجبرك على العودة نحو الشويرة.

وحين عدت لا تدري أي سر حرّم عليك حارتك والبيت الذي حلمت بالعودة إليه.. لا سلامة بنت يحيى هناك، لا جدتك بنت خادوم، لا أحد، مجرد فراغ.

خشيت الفراغ، وأفزعك البيت العود بذلك الفراغ، وخفت من رؤية الشويرة وبيتها العود مجرد جدران هجرها الساكنون بين أضلاع هيبتها.

***

حزنك رائق هذا الصباح، وفجرك قد أطل من تلك الكوة القديمة، فجر لا يلتفت لليل القادم منه، له أشعة شمس كالتي تطل على سرور كل صباح، يخاتلك فرح بهي، يحلّق رغم أنف العرق المندس والهواجس عن لعبة عشق مشكوك في براءة نتاجها، أخذتك الذاكرة بعيدا، نحو سماوات البيت العود وساكنيه، بعيدا عن حسابات الضواحي والأموال..

لتأخذ سرور ما تشتهي، لتفتش في عرقك كما تحب، وحدك واقف على الأطلال، يروقك أن تلتقي ساعد بن علي لكنه غادر إلى حيث لا رجعة، خميس بن ناصر طوى صفحته ومضى، الريح تهزم سعف النخيل، لم يعد لها قيمة كالتي كانت، نسيت سرور غجرها، أو هم نسوها حيث تلاشوا إلى حيث لا يدري كائن بهم، شجرة القاو في (الرم) ذهبت مع الريح كما هي أشجار الأمبا على طول عامد الحيلي، والفلج (الأوسط) وثالثهم (بو جدي).

بين ذاكرتين تتمدد، لا وجه لعبدالله بن خلف، ولا عين يغمزك بها، لا سطور تبوح بها الذاكرة القديمة ماء الحيلي يبلل تشققات قدميك، سارا أكثر مما تظن، وزعا خطوهما على كل تراب سرور، قدتهما أكثر مما يحتملان، وحدك الباقي من أولئك الذين رحلوا رجلا بعد رجل، كائنا

بعد آخر، يتبعون أقدارهم، وأنت المنسي بين قدر وقدر، تختلط عليك الوجوه والأزمنة والصور، في غياباتك تصرخ بأسماء موتى عبروا نحو قبورهم منذ عشرات السنين.

لا تدري أي ذاكرة هي الأصدق لكنك تنحاز إلى واحدة صافية بصفاء صباح سروري ينثر نسائمه على أوراق الليمون وبدايات الحصاد، تزرع أمنياتك في حقول تختارها وحدك، تعيد تشكيل سرور من جديد، كتابة تاريخها بغير حبر الغصّة.

عرفت سرور امتداد النخيل، وبيوت قليلة تناثرت بين نخيلها، كبرت حتى لم تعد تعرفها، كما كبرت الشويرة، كبر صغارها، وغادرها كبارها، لا تتبين العابرين حولك، وتظن أنهم لا يتبيّنونك..

كثيرون فوق طاقة ذاكرتك على التذكر.

وحدها تأتيك لتمسح عنك تعبك حينما يحاصرك فوق قدرتك، تدرك المنسوب الذي لا يقتلك، وتأتي إليك، تلك المرأة الغريبة التي أرضعتك، وصرت ابنا لها، حيث لا تتذكر أمك الحقيقية.. رحلت هذه، وبقيت المرأة حارسة لك، تباغتك على التفاتة ما، تعطيك شجاعة أخرى، وسنوات تمتد بك، وتسأل: هل ما يتكاثر من سنوات عمرك لتسعد به أو لتشقى بمزيد من جمر الذاكرة؟!

تبدأ الشويرة حين تنتهي حدود آخر ظل لآخر نخلة في قرية سرور، الواقعة بين جبلين، شرقي وغربي، تقع الشويرة قريبا من أحضان الجبل

الشرقي، وتمددت حتى وصلت إلى سفحه، لم يردعها عنه سوى قسوة صخوره.

تحاذي الشويرة حارة الحجرة شمالا، أو كما يقولون (حدرى)[16] ومن الجنوب (علوى) مقبرة الأطفال وبعض المزارع، وتمتد سرور من الشريعة إلى العقر المحاذية للحليفة، تتنوع الأسماء وتتعدد، واحد لواحات النخيل لتميزها عن بعضها البعض، وآخر للحارات خارج الواحات، حيث البيوت الطينية والسعفية متجاورة لا تفصلها عن بعضها البعض سوى سكك صغيرة، يقيسونها لمرور حمار يحمل (الثوج) على ظهره، لا زلت تراها بعين الذاكرة، ليس هناك البيوت الطينية والسعفية التي تتذكر، تغيّرت، تود أن تراها، لكن لغز بنت يحيى يرميك بعيدا عنها.

هكذا أنت عرفتها، تكبر وتكبر، كان جدك يشعر بها صغيرة، أصغر مما يرغب، وضاقت عليه أكثر حينما عشق بنت خادوم، ولا يعلم أي سر عاد به مرة أخرى، مدرك تمام الإدراك أن لقريته لسانا طويلا، أطول من نخيلها مجتمعة.

جدك وفي لعشقه، تزوج معشوقته، الآخرون أبقوهن عشيقات لا عاشقات، وألقوا فضيحة النسل في بيوت الفقراء الذين لا يرومون رفع أعينهم في وجوه أسيادهم.

(16)حدرى: الشمال.

حتما ستضحك عندما تقارن، إنما لا تقارن، لكل زمن حكاياته، يكتبها بفحم لا يتوفر في زمن آخر، الفحم حبرهم.. كان.

والحكايات ملاذهم في فراغات الزمن الآكل لأكبادهم وفلذاتها، حكاياتك امتداد لشغف مستوطن ظننته تيبس بين سعف النخيل وحزن الأشجار، موتها واقفة حيث المحل أكل سرور ولم يجد أهلها ما يأكلونه، لا تريد التذكر، حسبك ما أنت فيه، ريالاتك قادرة على تحويل مياه الحيلي إلى سواقيك كيفما أردت، تشتري ساعات السقي كما تحب، من أفلاجها أو آبارها، وأنت الخبير بقيمة ريالك، عزّ عليك كثيرا في زمن الفقر، وتكاثر في زمن تأخر أوانه كثيرا.

لا بد للحكاية من مباغتات، أنت الواقف الأخير على ضفتها، تآكل الباقون وأكلتهم الأيام حتى أفنتهم، سأسرد عليك ما لا تعرفه، أو لا تتذكره.

جدك كان ينتظر عودة والده، يوما بعد آخر، سنة بعد أخرى، سلامة بنت يحيى لم تتعب من انتظار الغائب، أو أنها لم تنتظر، لا أحد بمقدوره سوى التخمين، تحدثوا عن رحلته صوب البحرين، اشتغل هناك في مواقع شتى، من يأتون منها يحملون (خطّا) يؤكد أنه بخير وعلى قيد الحياة، لا يشكو سوى الفراق، والفراق امتد طويلا على قلب أمك، لكنها بقيت بين أمل لا يرى، ويأس لا يجف دمع حرقته، حكى خميس بن ناصر أنه سمع نشيجها يأتيه في حلمه، سمع بكاء مرًّا عرفه حينما نهض من نومته في الوادي، عرف أنه صوت بكاء بنت يحيى.

جدك يدرك أن والده لا يعرف القراءة والكتابة، لكنه كان يكاتبه، من أمكنة مختلفة كانت تصل الرسائل، تبدو نسخة واحدة، كأنّ هناك مجهولاً يكتب ذات الرسالة، قالت نسوة في سرور إن سلامة بنت يحيى تضع الرسالة الجديدة في (جلّة) دشداشتها مكان الرسالة السابقة، لم يرين لكنهن خمّن، وقلن أن بنت يحيى كانت تبخّر كل رسالة تصلها من غائبها، وتقرأ عليها ما لا يدرك من القول، قال خميس بن ناصر: لو أنها أرادته يعود لعاد في ساعة، لكنها تراه كل ليلة، خميس بن ناصر يعجز حين يحاصرونه بالأسئلة تبرير سبب بكائها طالما امتلكت تلك القدرة لعودة الغائب، يباغتهم بسؤال: من سمع بكاءها؟!.

أمعن في الغياب، وفي غموضه، حروف الرسائل تراها بنت يحيى وحدها، تعلم أنه لا يعرف الكتابة، اقترن بشيخ القبيلة منذ أن عرفته سرور، شغلته الغزوات عن العلم، كان يسير حيث سار الشيخ، والشيخ يسير حيث سار الإمام، أو يرسله مع نفر من قومه، يشاركونه في غزواته، يخمد فتن القبائل المتمردة عليه، يأتمرون بأمر الإمام، ويعودون عندما يأذن لهم.

يجلس جدك العاشق إلى أبيه يستمع منه إلى حكايات لا مجال إلا تصديقها، مبتهج جدك الأكبر لإصغاء ابنه إلى حكايات الإمام، الجدار الذي سيستند عليه في قادمات السنين، البيت العود يحتاج إلى استمرارية السلالة كي يبقى (العود).. كبيرا كما نهض، في الواقع أو في الحكاية.

لا تتبع أثر الحكاية، وحده لم يبنه أحد في سرور، طوبه لا يشبه نتاج يدي المعلم نبهان، أو كما يسمّيه أهل سرور (المستاد) والباقون لديه مجرد (كوليّه).. يعاونونه لإنهاض جدران البيوت في حارات سرور.

متواطئون على عدم النظر صوب حجارة البيت العود، لا يعرفون، أو لا يسألون من أين جاءت هذه الحجارة، يتجنب الشيخ الأسئلة والأجوبة معا، يشيع أنه يعرف لكنه لا يبوح بالأسرار الكبرى، يضع قياسات مهابته على كل موطئ قدم في سرور.. إلا على البيت العود.. هالة سلامة بنت يحيى تنبت من المجهول، وتعشي كل رائي.

.. وكبرتم، مرّ الزمن سريعا في غفلة منك متسع المسارات، استويتم على عجلة من الوقت المتربص على سلالم البيت العود يتقافز صغاره تحت سمع وبصر سلامة، الجدة (العودة)، لكم شرف تقبيل يدها كل يوم، وتقبيلكم بشفتين تشعرون بوهج خفي ينسرب إلى شرايينكم كنفحة روحانية.

عمك عمر كبر، عندما بلغ السادسة عشرة، رأت سلامة بنت يحيى أن حفيدها جدير بالزواج، يومئذ أدركت أكثر من أي وقت مضى ما الذي فعله جدك، سكنى البيت الكبير حلم كل فتاة في سرور، لكن جدتك، في عرشها العالي كانت تعيش أوهامها العالية، تطل من على شرفتها المطلة على الغافة العودة وهي تحتضن في ظلها البدو القادمين لبيع مواشيهم في الهبطة، سلامة تريد سلالة من صلبها، محسوبة عليها،

عالية كعلو البيت العود. كأنها تود رتق ما حدث من شق هائل في ثوب الحرير.

يقال إنها سمعت، لم يقل الراوي أين وكيف تجرأت امرأة أن تقول لها أن لخادوم ذرية تنتظر مجنونا آخر يشبه والده ليقترن بابنة منها، نقل الشايب هاشل الحكاية وفتتها.. وحده هاشل لا يهاب هيبة الجالسة هناك، ضحك ولد حمدان وقال إن الشايب هاشل ربما يكون أحد جنّ بنت يحيى.

.. وسلامة بنت يحيى، لا تحني هامتها، وهي التي ولدت بهامة لا يعرف سروري من أي فج سحيق جاءت، كيف بها تطلب شيئا من آخرين، ابنة تخطبها لحفيدها، أولادها تبعثروا، حملوا لعنة البيت العود ومضوا إلى غايات لا يدركونها، فرّقتهم السبل وتفرقت بهم، وحدها سلامة قابعة هناك، كأنها لا تريد كبيرا غيرها في البيت العود.

حكى خميس بن ناصر أن والد جدك جاء وحيدا، مع أن خميس بن ناصر لم يمتد به العمر ليشهد على الحكاية لكن أهل سرور يصدقونه فيما يقول، هو أكبرهم سنا، مؤكد أنه جاء بالحكاية من آخرين سبقوه، لا مجال إلا التصديق، يعيش ليروي ما تريد سرور سماعه، عليه واجب الحديث، وعليها واجب تصديق ما يأتي به.

ذات نهار حكت حرمة عبدالله بن منصور أنها شاهدت امرأة في

البيت العود، لم يصدقها أحد، حسبوها تتوهم، قالوا إنها مصابة في عينيها، وعليها أن تقطر فيهما رحيق بصل لتزول عنهما الغشاوة.

وقال مسلم بن ناصر أنه كان يخرف النغال في ضاحية طوي عاصي إذ حانت منه التفاتة إلى شرفة البيت العود، رآها هناك، وكأن صوتا من الغيب اخبره أنها سلامة بنت يحيى، وحين آب إلى بيته كان بين التصديق والشك، ونام قيلولته حتى إذا نهض ظهرا أخبر زوجته، قالت له أنه كان يحلم، وكان اسم سلامة بنت يحيى على لسانه.

اسم سلامة تتقن تهجئته الألسنة كأنه لا مخلوق في سرور إلّاه، يصدقون قبل أن يروا كيف استدارت بالبيت العود لتكون شرفته مواجهة للشمس المشرقة، مطلة على (السيح)، بابه لم يعد في مكانه، يعرفون أن خميس بن ناصر لديه الخبر اليقين، سحابة لم تمطر إلا على البيت العود، فتملأ بنت يحيى أوانيها بماء عذب شبّهه خميس بن ناصر بماء زمزم، لم ير السحابة أحد، ولم يذق من الماء أحد، كأنه وهج بنت يحيى يدفعهم لتصديق كل شيء عن البيت العود.

قالوا إنها ساحرة، لا تشبه السحرة الذين عرفتهم سرور، تختلف عن ناصر بن علي القادر على أكل أولاده وأبناء قبيلته المقربين متى أراد، تسمع الشويرة، ومعها الحارات المجاورة، الحجرة، وصولا إلى حارة السوق والحبيك، صراخ "المغيبين" في الجبال الشرقية..

مؤكد أنك لم تعد تسمع صوتهم أيها المكابر، لا أثر للسحرة، ولا للمغيبين، الشويرة تسامر تلفزيوناتها حتى مطلع الفجر، لا حاجة لسماع

الحكايات، حقيقها ومتخيلها، يردد جمعة ود الشايب هاشل أن المغيبين اختفوا لأن السحرة شبعوا، أولادهم يعملون في وظائف ويستلمون ريالات كثيرة، كلما أبصر سمينا يذكّره باختفاء السحرة.. وإلا ما كان هذا اللحم باقيا يمشي به إنسان على وجه الأرض.

لكن سحر بنت خادوم أقوى.

ولم يفلح سحرها، ولا أحجبة حمدان أن تمنع جدك من الاقتران ببنت خادوم، لكنها يوم أرادت تزويج عمك عمر فعلت المستحيل لتأتي له بعروس بيضاء، جميلة، من حسب ونسب، كأنها تريد معادلة اللون الأسود والحسب ما استطاعت إلى ذلك سبيلا.

الزوج لم يعد من غيابه، قيل إنه مات، هكذا مات دون حاجة إلى مزيد من السطور لحكاية تلوّنت كثيرا، حكى الراوي الأخير أنه كان في طريقهم إلى عمان، وهبّت عاصفة على الخشبة التي كان عليها ومعه مغتربون أعادهم الحنين، نجا قلّة، وماتت الغالبية، بينهم زوج سلامة بنت يحيى الذي شاهده أحد الناجين يقاوم الغرق حتى هوى، قال إنه استودعه أمانة، أن تسامحه سلامة بنت يحيى، وأن تحافظ على البيت العود.

همس على مقربة من أذنها أن الدفتر محفوظ في بقعة ما في البيت، وهي الوحيدة التي تعرف ما به..

ارتفع صوت خميس بن ناصر محتدا: سلامة بنت يحيى صاحبته، ولا تحتاج لوصية.

عمر بلغ السادسة عشرة، وكلما أرسلت رسولها يطرق بابا لطلب الزواج بقي مفتوحا لا جواب يأتي منه، كلهم يخشون عرق بنت خادوم المندس، ولا يريدون طفلا لابنتهم تكون بنت خادوم جدته، وآمرته، كانت بنت يحيى ترسل من يطرق الأبواب بدلا عنها، شامخة فوق مستوى الطلب.

القبائل ترفع هامتها كلما عرفت إلى ذلك سبيلا، وفي النسل لا تتهاون، وفي الحسب والنسب تبالغ في السؤال عن السلالة جدا وراء جدّ.

وهي سلامة بنت يحيى، سيدة البيت العود، تستطيع البيوت أن تلقم فمها الصمت، لكنها عاجزة عن قول لا.

تتتبّع خطوك بين نخلة النغال التي كنت تقطف باسومتها تبشرة بقدوم موسم الرطب، وبين فسيلة وضعتها ذات يوم وصارت أعلى من كل النخيل حولها، رابعة استبشرت فرحة بما حملته إليها، وضاجعتك حتى صحت من الشهوة، يومان مكثتهما في غرفتها، خشيت أن تخرج تحت وهج الشمس، نورها فاضح، وسرور لا تتسامح، أخبرتك أنها بنت الشيخ الذي استبقاها مع اخواتها ضنّا بهن على زوج لا يليق بهن، وهي الجسد المشتعل، آوت جسدها الجمر فاستوى على جمرها نارا، أضاءت مساماتها، اشتعل الجسد نورا، نسيت النار، وكان عليها أن تحمل وقر الاحتراق، وتفرّ مع العتمة إلى حيث التيه، سارت في ركاب الغجر، وهبطت سرور ذات فجر، ذهبوا هم إلى شجرة القاو في حارة الرم، وهي إلى مأوى رفعت سقفه بالسعف على شجرة سمر.

عرف رجال سرور الطريق إليها، ومعهم بعض قروش، يطلبون المتعة الحارقة، ويدسون في فراشها شهوتهم، وفي يدها قروشهم، ويمضون.

يثقلك الوجع كلما جئت على سيرة رابعة، تتنهد كأنك تطلق أنفاسك للمرة الأخيرة.

لا حيلة لك.. إلا وجعك.

لا درب أمامك.. إلا ألمك.

رابعة هناك، حيث المجهول يلاحقك كلعنة، معها ابنك / ابنتك، شيء من صلبك، من سلالة البيت العود، أنت القابض على جمرها وحدك، تسحب العمر يتكدس عقودا فوق ظهرك، كأن الموت نسيك، تركك وحيدا في طرقات سرور تبحث عن يقين، لعلها تأتي المرأة الغريبة به، طعم حليبها في فمك، رائحتها في روحك، لكنك في متاهتك لم تعد تحلم بشيء.. سوى النهاية التي نسيتك.

***

في هزيع متأخر من الليل كان يأتي مع هبوب الكوس صوت أقرب إلى (الرزفة)، في الليلة الأولى سمعه نفر قليل من سكان الشويرة، ظنوا أن السحرة يلهون في (الشاغي) القريب، أو أن عرسا في قرية لزغ المجاورة يأتي صوته في الأثير المفتوح على سكون يغري بالتنقل.

في الليل التالي بدا قريباً جدا، كأنه يهبط من الجبل الشرقي وينساب

على الشويرة رطبا كالهبوب الذي يأتي به، خرج راشد الراعي من خيمته، اطمأن على شياهه، رأى في الأفق المفتوح على أحجار وأشجار سمر أن لا شيء يتحرك في السكون العذب حيث ودعت سرور الصيف منذ شهرين، صوت الرزفة يأتي حينا، ويختفي أحيانا، لكنه موقن أنه صوت رزفة، ينساب من الجبل وكأنه طائر يحط على البيت العود، يكاد يبين بكلماته، فيها جمال صوت مصبّح، الرزّاف الشهير الذي تعرفه سرور وسائر قرى وادي سمائل، إيقاع الطبول يكبر، مع فرائحيات صوتية كأنها صوت واحد، صوت مصبّح.

أنكر مصبح ما تسامعت به الشويرة وتناقلته، وفي كل حارة كان يقسم أغلظ الإيمان أنه كان مريضا في بيته يعاني سعالا يزلزل صدره، في أيام تالية تلاشى إنكاره، في ليلة حارقة أحس بحمّى شديدة تحرقه، لم يخف جمرها إلا حينما قال: نعم، كنت أنا الرزّاف.

نظر الراعي إلى البيت العود، رأى قناديل تتحرك، تصعد السطح وتعود، وصوت الغناء يكاد يلتقي مع تلك القناديل التي تلوح من بعيد بدون أيد تحملها.

أيقن أنها سلامة بنت يحيى تضرب الأفق بأنوار قناديلها، وسيتساقط من النجوم خبر مضيء على البيت العود.

في صباح ليس ببعيد على صعود أصوات الرزفة والقناديل المتأرجحة على سطح البيت العود، التي رآها راشد الراعي فخاف من إشاعة خبرها، ولم يصبر على مقاومة عادته في إذاعة الأخبار ونشرها، في ذلك

الصباح خرجت سلامة بنت يحيى من البيت العود تعرّج على بيت الشيخ، تطلب منه أن يأمر الجماعة فيدعوهم إلى المسجد بعد صلاة المغرب، ملكة ولديها عمر وسعيد.. ادّعت الشويرة أنها رأتها، وأنكرت عليها بقية الحارات موقنة أن في الأمر وهما تعرف بنت يحيى كيف تلقمه الشويريين.

بوغت الشيخ بالزيارة، لم يصدق الأمر ولم يستوعبه، أمامه سلامة بنت يحيى ماثلة حقيقة لا لبس فيها، خشي من مراودات الكلام حيث اعتادت بنت يحيى الظهور في المنامات، حدّق في عينيها طويلا، وتركته لتدرك زهو حضورها ومباغتاته، يمضي متأكدا من وهج غامض أقرب إلى سماء تتراقص فيها نجوم، تومض وتخبو، فتح فمه على بضع كلمات: "ومن أين خطبت لهم؟" سألها، ابتسمت، ولاذت بالصمت، والانسحاب من حضرة الشيخ، تبعها متأملا، لاحقها بعينين راغبتين، لولا أن الغائب لم يتأكد لا موته ولا عودته، فيضمها إليه، مع البيت العود، التفتت فجأة، أدرك أنه بالغ في حلمه، وعاد متقهقرا إلى مجلسه، حيث جماعته ينتظرونه بين شاك ومشكي به، سألوه عن وقفته وحيدا في الدرب العابر أمام باب المجلس، ارتعد جسده، حكى عن الوهج الغامض الذي تحول إلى عاصفة، للمرة الأولى يرى في عيني إنسانة ريحا هبّت بقوة جامحة، حجبت عنه الرؤية، تلبدت الشويرة بغبار أسود، بكى الناس ذهولا منه ورعبا، وكان الشيخ يتحدث مرتعدا، تبادل خاصته النظرات، لم يعرفوا من ذلك شيئا، لا غبارا أسود، ولا بكاء.

يدركون ولا يدركون أنها المرة الأولى التي تخرج فيها سلامة بنت يحيى من البيت العود منذ إن جاءت به ومعه، وللمرة الأولى يراها الشيخ، شيء ما في جبينها يقول لهم أن هذه سلامة بنت يحيى، خروجها نادر، ويكاد لا أحد يراها، تسير إلى مبتغاها وتعود.

لسلامة بنت يحيى حضور طاغ، كنسمة يشعر بها المرء ولا يراها، يسير حضورها في حارات سرور دون حاجة لمرور صاحبته، يدّعون أنهم صادفوها في طريقهم، وينقض الأقوال آخرون، حلم أو أقرب لحلم، قوام فارع لا تعرفه القرية إلا نادرا، وبياض أقرب إلى الثلج، لم يسألها أحدهم عن قبيلتها يوما، ساروا في ذلك كل حسب ظنه، يكفي أنها سلامة بنت يحيى، وزوجة خلفان بن صالح، صاحب البيت العود، كأن البيت العود قبيلة بذروة سنامها وهيبتها، هكذا وجدوه بينهم، البيت وصاحبه وصاحبته، أكبر من أن يسألهم أحد من أين أتيتم؟

هل تتذكر ملامح جدتكم سلامة بنت يحيى؟ ترهق نفسك في تتبع طفولة مترامية في بعدها وأبعادها، تكاد تقبض على صورة وجه بنت يحيى، لكنك لا تروم الوصول نحو وجه قبّلته صغيرا، كأن الذكرى آتية من أبعد مسافات الحلم.

***

اجتمع رجال الشويرة إلى مسجد الدروس، الواقع على حافة النخيل، كأوّل بناء في الشويرة، قريبا من فلج الحيلي، بناء طيني صغير يتسع لنحو

عشرة أشخاص، افترش البقية حصرا من القصب في الساحة الممتدة بين جدار المسجد وبداية امتداد الشويرة على أول جدار طيني، حمل ولد هاشل دست الحلوى كما أمرته سلامة بنت يحيى، أو خيّل له ذلك، وجلس الصبيّان أمام سلام المطوّع، عمر في السادسة عشرة، وسعيد أقل منه بعام أو عامين على الأكثر، يتابع الجالسون المطوع يعقد قران الصبيين لسماع اسم الزوجتين، أي عائلة وافقت على الزواج من عمر وسعيد، عمر بقامته الفارعة ولونه الداكن تلتمع عيناه الواسعتان ببياض يحفزه السواد من حوله على اللمعان أكثر، وسعيد يحاول أن يشد محزمه أكثر ليتعلم الرجولة باكرا.

رغم العدد القليل داخل المسجد إلا أن صوت دهشة انبعث منه ليتلقفه الجالسون في خارجه، وتتلقفه الشويرة في غمضة عين، ويصل سرور حارة حارة، وضاحية ضاحية، سلامة بنت يحيى زوّجت ولديها عمر وسعيد من ابنتي الشيخ مهنّا بن ناصر، الرجل الذي إذا حرك عصاه تدافعت بنادق وتدفق رجال كأنهم الشهب يحرقون قرى مناوئيهم، حيث يشير الشيخ باصبعه، قرى استيقظت على أدخنة ما تبقى من جذوع نخيلها المحروقة، وكانت بقايا جلود آدمية تطل مروّعة من قمم الأشجار.

اختارت بنت يحيى الشيخ مهنا لتقول للشويرة وسائر سرور أن رسلها كانوا يكذبون، ومتلقفي الأخبار واهمون، لم تخطب لابنيها عمر وسعيد من سرور، وحدها القادرة على ما ترغب، ولا أحد يرفض.

تكاثف مزيد من الضباب على حكاية الجد العاشق، أين كانت سلامة بنت يحيى؟!

لا يعرف أحد كيف صفعت سلامة بنت يحيى رافضي عمك عمر بقسوة جعلت الجميع يهجع إلى مرقده ينسى طعم الحلوى الذي لم يذوقوا مثله في سرور، قالوا إنها حلوى نصير، آتية من نزوى، لكنها ساخنة، قالوا إن سحر سلامة بنت يحيى جاء بها في غمضة عين، روت حرمة عبدالله بن منصور أنها رأت دست حلوى يطير فوق الغافة، وعندما رأت بنت خادوم تغسل الدست في اليوم التالي في فلج الحيلي شهقت، وقالت إنه لم يكن حلما، وأغمي عليها، وعندما أفاقت وجدت نفسها وحيدة في المجازة، وعلى أصابعها بقية من حلوى، كانت تلامس شفتيها بمذاق لن تنساه أبدا.

حدثت زوجها ود منصور بما رأت، كان حزنه لا يزال طازجا على حماره الذي مات مقتولا، ضاعت من يديه فرصة رزق، كان الحمار يحمل جراب التمر يسير به من ضواحي النخيل إلى بيوت أصحابها في الشويرة وما جاورها، كان يعرف الدروب جيدا، يحمل الحصى والأمتعة وكل ما عنّ للبشر حمله ولم يستطيعوا تحمل ثقله.

أعادت عليه حكاية سلامة بنت يحيى، لكنه يفكّر كيف يثأر لحماره المقتول، ربما فعلها أحد أولاد عمه أو حمد بن سليمان الهنقري، لأنه عانده واشترى منه ضاحية المباسلي.

***

في ذاكرتك لا يبدو عمك عمر كما تتمنى، انسلّ جزء كبير من حضوره في أعماقك، تجتهد لتستدعيه من باطنك البعيد، بعد عشرين عاما من رحيلكم أو أكثر، لم يكن يتحرك في محيط الشويرة وبقية سرور على أنه من نسل البيت العود، إنما حالة خاصة لا دخل فيها لما يجري حوله، كالتائه يسير، ملابسه تشبه الأسمال، أو هي الأسمال ذاتها، عتم لون ثوبه الأبيض، اسودّ بالإهمال، لا يضع المصر على رأسه كالآخرين، يلويه على عنقه، وينظر بعينين ذابلتين تطلان تحت جبين واسع، وأسفلهما أنف أفطس بمنخرين كبيرين وشفتين ضخمتين، ملامح والدته لكنه لم يأخذ منها جرأة نظراتها.. يأنس، أحيانا، إلى ساعد بن علي أو يرى بصحبة سيف بن نصير.

اشتغل بيدارا، يقال إنه لم يتجرأ أحد ليخبر جدته سلامة بنت يحيى أنه اشتغل بيدارا في أموال السيابيين، لشيوخهم ضواحٍ واسعة في سرور، ما كانت تقبل ساكنة البيت العود أن يشتغل حفيدها أجيرا لدى أحد، قالوا إنها لا تحب أن ينافسها أحد أو يشعر شخص ما أنها تنافسه، تركت ضواحي النخيل للآخرين، وإلا فإنها كانت بقدراتها تستطيع أن تحوّل الشويرة إلى ضاحية نخيل كل ما فيها خرايف، متعددة الألوان والمذاق.

وذات يوم لم تر سرور عمك عمر..

أو أنها لم تفطن إلى أنه لم يعد فيها.

سأل عنه أصحاب ضواحي النخيل التي يعمل فيها أجيرا، وعندما استبدلوا به بيدارا آخر ألغوه من اهتماماتهم.

”سلامة بنت يحيى لا تشغل نفسها كالآخرين، وتأخذ الرطب جاهزا يصلها حتى باب بيتها العود“، قيل إنها تحدثت مرة أمام نسوة، وفي غمضة عين كانت سرور تعرف ما قالته بنت يحيى.

كان عمر يأتي بالرطب إلى باب البيت العود، له حق عسقة في كل نخلة، هكذا تسير عادات القرية في تعاملها مع البيادير، النخلة الجيدة أو الرديئة له عسقة منها، لا يضام في ذلك، لم تسأل سلامة بنت يحيى عمك من أين يأتي بهذا الرطب، خمّنوا أنها تعرف دونها حاجة لارتباكات السؤال، تترك كل صاحب شأن يمضي في شأنه طالما يسعده ذلك، تترك لسرور متسعا من التخيل، كأنها نعمة تمنّ بها عليهم، كأنها تصوغ أسطورتها من متخيّلهم، ضبابية الرؤية أمامهم، الهوامش بجوار متن شخصيتها ما يعزز يقينها بالأسطورة، أسطورتها.

تهبط زوجة عمك عمر من غرفتها في الطابق الثاني وتأخذه، بفيض دموعها تفصل الرطب عن التمر، تضع صحن التمر فوق السطح يومين وتأتي به لتحمله بين أصابعها حبة بعد أخرى تزيل عنها شوائبها.

تعبرها سلامة بنت يحيى ولا تعلق بكلمة..

تشعر بمرور سلامة بنت يحيى ولا ترفع رأسها.

يأتي عمك عمر ليجلس بجوارها، ينظر إلى وجهها فيبتسم، وتنظر في وجهه فيزداد كدرها، تريده ابن البيت العود، الرجل الذي تمنته يوم أن قيل لها وهي طفلة بالكاد بلغت الخامسة عشرة أنها ستسكن البيت

العود زوجة لأحد أحفاد سلامة بنت يحيى، حملها الغموض وجاء بها إلى عمك عمر، تحت الغمار[17] لم تر شيئا، صعدت سلالم بعد سلالم ثم قيل لها اجلسي، جاء من وضع يده على رأسها وقرأ الفاتحة، صرّت قدرها في الغدفة الغالية هدية سلامة بنت يحيى، وعرفت رائحة بخور لم تعرفها في حياتها، سليلة بيت الشيخ مهنّا بن ناصر.

في الصباح رأته، رجلها الذي تكتشف ملامحه للمرة الأولى تحت ضوء النهار، لونه المعتم، ملامحه الزنجية، أحست بالخديعة، أن أهلها غدروا بها، زوجوها أحد عبيد سلامة بنت يحيى لا حفيدها، انحنت ليقينها أكثر حينما سألته امراة من بياض هي ليست إلا سلامة بنت يحيى عن ليلته الفائتة، كانت تدرك بما حدث البارحة، قماشة الدم التي ألقاها عمر إلى المرأتين الواقفتين أمام الباب تنتظران صك البراءة والطهر.

أصابع المرأتين على القماشة المبللة بدم متخثر، له رائحة لا يخطئها الشرف، وأصابع رجال تضغط على أزندة لم تتأكد سرور من أين لهم كل هذا الرصاص ينطلق في فضاء الشويرة محزما إثر محزم.

تفجّرت سماء فوق سرور، أمطرت رصاصات وكان الأطفال يجمعون (الكيلة) فوق الكيلة، نحو شهر قيل إن آباءهم جمعوا بقايا الرصاص في جوانٍ، وجاءت قافلة حمير تحملها نحو نزوى لبيعها في السوق المجاور للقلعة، لكنهم عندما وصلوا إلى نزوى وجدوا بضاعتهم ترابا بلون أسود،

(17)الغمار: ما تغطي به العروس وجهها ليلة دخلتها.

تملكهم خوف أشد ثقلا من سواد البضاعة، التراب المنضود في الجواني، كأنما كانوا يخشون خروج حيات من تحت التراب المحروق.

***

من ليلة زفافه تلك لم يكن عمر ذاته الذي كان..

مات عمر ليلة زفافه، وولد آخر صبيحة العرس، لم يكن بوسع راشد الراعي سماع صوت الرزفة ينساب من الجبل الشرقي كأنه قادم من أبعد بعيد باتجاه أقرب قريب، البيت العود.

ذهب عمك عمر في فجره ذلك إلى فلج الحيلي، واغتسل، كما يفعل كل رجال سرور ونسائها، يأخذون الطهر من جناباتهم بماء الفلج، تسيل الجنابات من الأجساد سابحة باتجاه النخيل والأشجار، تمر على أجساد أخرى ساقها قدرها لتستحم في مجازة تالية، على امتداد ساقية الفلج المنساب طاهرا، كما يفتيهم في ذلك عالم سرور المعروف عبدالله بن أحمد.

لم يعد إلى البيت، سار باتجاه ضاحية السيابيين، فتح "الصوار" وانساب ماء الفلج باتجاه ساقيتها، كان منذهلا من شيء ما، يعظم في صدره، ولا يبوح به، عمك عمر لا يتكلم كثيرا، وقف على الساقية وعينه على الماء يجري من جلبة إلى أخرى، يتغيّر لون التربة، يشرب لونا غامقا، كان صياح أحدهم كفيلا بانتباهة عمك عمر، غاضب جاء إليه

لأنه قطع الفلج عنه، هذه (البادّة) لي، كان رجل يصرخ، لكنه عندما وصل إلى حيث يجلس عمك وتبيّن الأمر، تكلم بصوت خفيض..

- لماذا قطعت الفلج عني؟

- اخطأت في حساب الوقت.

- مثلك لا يخطىء، يعرف أوقات الفلج واحدا واحدا، "المحارزة" ليست من حق هذه الضاحية.

- أعرف، اختلطت عليّ الأوقات، سامحني يا عمي.

- مسموح يا ولدي، اركض بسرعة وأدر "الصوار" إلى ضاحيتي، أنت أسرع مني.

سار عبيد يجرّ ساقيه بصعوبة، يهز رأسه آسفا، عينه على ساقية الفلج يراقب ماءها، لعلّه عمر وصل إلى صوار ضاحيته ويحيل الماء إليه.

لم يخفت ماء الفلج، ولم يجد عمر في طريقه، انحنى ليسحب الصوار من حاجز الساقية الفرعية ليضعه على ساقية عامد الفلج، جرى الماء، وجرت في رأس عبيد ارتباكات، صورة عمر الذاهلة في مخيلة عبيد تتدافع لتسأل عن مآل الحال، حفيد سلامة بنت يحيى أم حفيد بنت خادوم؟

قصّت سرور الحكاية لبعضها البعض، وألقت سعف الأسئلة تحت كل نخلة.

ذات مرة بكى عمك عمر، دارى دمعه رغم محاولته كفكفته، مرّت

الكلمات حارقة، لكنه تخطّاها، دارى جرحه وقفز عليه صوب الساقية المجاورة لسبلة الشيخ، كان عمك جالسا، ودخل أحدهم قادما من سمائل، شيخ آخر، يحفّه عدد من أبنائه، كبر عليه أن يرى عمك عمر جالسا دون أن ينهض لتقبيل أيدي القادمين، واستشاط غضبا حينما كان يتناول القهوة مثله كأي رجل منهم، نهره الشيخ القادم من سمائل، كيف يجرؤ العبد أن يجالس أسياده ويتصرف مثلهم؟!

لم يرد عليه عمك، خرج بهدوء، دارى الصخب الثائر داخله، ذهب إلى الحيلي، دخل المجازة وخلع ملابسه، وافترش الساقية مغمضا عينيه، كأن الماء يغسل الجراح، ويمضي بها إلى واحات النخيل في ضواحي الهناقرة، أو "العرّابة" كما يسمي العبيد أسيادهم.

كأنك لا تدرك أن الزمن تغيّر!! لم يعد زمن الفصل بين البشر، تحتاج إلى زمن آخر لتستوعب، تساوى الناس، تحرروا خارج أوهامكم القديمة، وعليك أن تنسى، منعزل، أنت، في أودية سحيقة لا يقدر أحد تبيّنها..

أيها الناسي عليك بالنسيان، اجتراع المزيد منه، اجتراح معجزتك الشخصية، علّم ذاتك أن ترى، علّم عينيك أن تريا، في نظرتهما ما يشيء بأنك غير قادر على فعل النسيان.

لم ير أحد زوجة عمك عمر، يتذكرون الحلوى التي أكلوها في يوم مشهود سيبقى في ذاكرة سرور طويلا، وستنساه عندما تقرر سلامة بنت يحيى موعد النسيان.

قالوا إن عمك سعيد سافر أيضا، اختفى مع والده، لا توجد حكاية تشبه الأخرى على ألسنة سرور، اختفى رجال كثيرون من البيت العود، والد جدك، وأبوك، وعمك سعيد، وتبعه في الغياب عمك عمر.. ولم يسأل عنهم أحد، كأن سكان البيت العود جاؤوا من حيث لا يدري إنسان، وسيذهبون إلى حيث لا يعلم كائن.

***

تحت الغافة ألقى "رعاة الجبل" بضاعتهم، أنزلوها من على ظهور حميرهم، أكياس من الخيش حملت منتوجات الجبل الأخضر من جوز ورمان وماء ورد، يبيتون ليلتهم تحت الغافة بعد أن باعوا بعض محاصيلهم الجبلية في هبطة نفعا التي تسبق هبطة سرور بيوم.

تحت أشجار السمر والسدر على الطرف الغربي للشويرة ألقى الشواوي رحالهم وتأكدوا من ربط أغنامهم جيدا مخافة سارق أو باحث عن غفلة، يتوسدون حصاة، والسكين بارزة فوق بطونهم الضامرة يغرسون نصلها في حزام جلدي، يدهم خبيرة بالمقبض تهتدي إليه في غمضة عين، تومض التماعة السكين من غمدها أو يدفع الاصبع زناد البندقية.

رأى خميس بن ناصر في عتمة الليل أحد الجبليين يحمل بضاعته إلى باب البيت العود، ورآها بنت يحيى تخرج إلى عتبة الباب ويجلس الجبلي مقابلها يعدّ لها حبات الجوز، مجموعة كبيرة من زجاجات ماء الورد، وحمل قفير من الرمان يدخل الباب المنقوش، وكاد أن

يتبع الجبلي وهو يعود إلى منامه تحت شجرة الغاف لولا أنه رأى أحد الشواوي يجرّ بيده اليمنى تيسا، وفي الأخرى كبشا لتختار بنت يحيى ماذا تريد أضحية للعيد القادم بعد أربعة أيام، لكنه أبصر الشاوي يعود سريعا تاركا التيس والكبش لساكنة البيت العود.

تحيّر خميس بن ناصر في عدد ساكني البيت العود، إن كانت ستذبح الرأسين في يوم واحد، في صبيحته تلك بحث خميس بن ناصر عن الرجل الجبلي والآخر الشاوي ليسألهما، لكنه لم يجد أحدهما بين أبناء الجبل أو الشواوي وكانوا من القلّة ما مكّنه من حفظهم سنوات طوالا اعتادوا فيها القدوم إلى هبطات العيد المعروفة.

اشترى كبشا صغيرا سيتقاسمه مع أخيه وجارهم حمد بن سعيد، وسار به من الجلجلانية محاولا نسيان ما رأى، عدّه أضغاث أحلام ومضى.

***

لا تبتئس، ذلك زمن ومضى..

لم تكن العبودية حكرا على ذوي اللون الأسود، كان الشيخ هو السيد الوحيد، مهما بدا رجال جماعته أحرارا.

كان بمقدوره أن يضربهم، يسجنهم، يظلمهم..

دعني أخبرك عن حمد بن سالم، تعرفه، أو بالأحرى تتذكره؟

يقال إن شركة النفط في أواخر الستينيات طلبت عمّالا، وأرسلت الحكومة رسالة إلى الوالي، ومنها إلى الشيوخ لاختيار أحد من رجالهم، قام شيخ قبيلة حمد بن سالم بكتابة الأسماء في خط[18] إلى الوالي، ومعه طلب إرسال معاشاتهم إليه شخصيا، كان العمّال يذهبون إلى الشيخ لاستلام مستحقاتهم، أو ما يجود به الشيخ عليهم منها.

لا يجرؤ أحدهم على السؤال، كانت كلمة "إن شاء الله" اللازمة الدائمة على ألسنتهم، فخر لمن يقرّبه الشيخ إليه، أو يدنيه من مجلسه.

لا عيد إذا لم يكن الشيخ راضيا، يسيرون بين يديه إلى مسجد الفج لأداء صلاة العيد، والرصاصات المجلجلة دلالة فخر وفرح.

عمك عمر لم يقرب مجلس الشيخ بعد تلك الحكاية، صبيحة اليوم التالي لزواجه، ازداد انطواؤه، اتسع صمته، وحالات شروده، يتابع حركة الفلج، في أي صوار ذهب، ومتى سيعود يتبع ساقيته وصولا إلى آخر نخلة في سرور.

تضاءل عمك بين صخرتي صمته وحزنه، لم يفهم أحد ما الذي تغيّر، وبقيت وحدك في سرور تسحب صخور أحزانك.

ضع حزنك جانبا..

واغسل بؤسك بما يمكنك من ماء فلج الحيلي، بارد في صيفك هذا، فللحكاية مداهناتها، سأقول لك أين مضت بجدك، كأنما البيت العود

(18) الخط: الرسالة كما تسمى قديما.

يقسّم غموضه بين ساكنيه، يهبهم ميراثه من أسطورته، يؤسطرهم، البشر كالحجر، بعضهم يقدر على حملها، آخرون يخرّون تحت وطأتها، فلا يدري ما يصيبه من قسمة هذا البيت.

***

حين رأى جدك عريش بن خادوم خاليا إلا من أعمدته الشجرية المتداعية، أصابه حزن عميق، عاد إلى البيت العود صامتا، لم يقل كلمة، راوغ حزنه بالصمت، قرأ في عيني والده بقية الحكاية، الرضا التام في عيني صاحبة البيت العود ألقى بجمره في عيني الابن، خادوم أجبر على الرحيل، ومعه المعشوقة التي أكلت بحرارتها قلب ناصر بن صالح، ابن صاحب البيت العود، البناء الطيني الشامخ في طابقين يعلو بيوت الشويرة الطينية والسعفية على حد سواء، لا مقارنة بين شاهق وهابط.

.. وحين انسلّ الفجر التالي من عتمته مفسحا للضوء سانحة التغلغل إلى مسامات الشويرة خرج جدك حاملا ربطة صغيرة بها ما تيسّر من ملابس، وأطلق العنان لخطواته، كان سريعا، يتقافز كوعل برّي، وقبل أن تنشقّ الشمس من وراء الجبل الشرقي وصل جدك إلى هصّاص، شرب جرعات ماء من فلجها العابر قريبا من الوادي، ومضى إلى الخوبار، وحين انتصف النهار كان يصلي في مسجد مازن بن غضوبة، سائلا عابرين عن رجل يدعى خادوم ترك قرية هناك تسمى سرور مع عائلته، وصفه أحدهم، كان يقطع وادي سمائل صوب وادي بني رواحه.

مضت به أودية ودروب، يوما بعد آخر، لم يكن من الصعب القول أنهم شاهدوا خادوم يسير نهارا، وفي الليل يلتجىء إلى خيمة هنا أو عريش هناك، يطعمونه ويسقونه ومن معه، ويمضي.

بعد أسبوع وصل جدك إلى نزوى، استراح على جدار قلعتها، استدار حول السوق، السؤال عن مجهول صعب فيها، أمعن في السؤال والوصف حتى اهتدى إلى معرفته أحدهم، بائع قال إنه رأى خادوم، صادفه رثيث الحال يكاد يسقط من تعب الارتحال والهم، ألحّ جدك، سليل سلامة بنت يحيى، في طلب المزيد عن جدّك الآخر، خادوم، حدّثه البائع حتى اهتدى إلى بقعته التي آوى مع عائلته إليها.

لم ييأس جدك، تبع قلبه، حتى عثر على المرتحلين..

كانوا يستظلون تحت شجرة كبيرة بالقرب من مرفع دارس، التقت وجوه في صمت، لم يتكلم خادوم، خانته الكلمات ليقول شيئا في حضرة ابن صاحب البيت العود، وإن شقي به، هذا العاشق، قال لهم أنتم مني وأنا منكم، شرفنا واحد، صدمتهم الكلمات أكثر، من أين له هذه المفردات؟ أكبر من الاستيعاب، أكبر حتى من القدرة على السماع.

طأطأوا الرؤوس، انحنى خادوم على يد جدك يقبّلها كما اعتاد، ساروا صوب الجبال، كانت وحدها حامية، اختاروا قرية صغيرة لا تبعد عن نزوى كثيرا، والتجأوا إلى شيخها، طالبين الستر والحماية.

للحكاية ألف وجه، لا أرى كل الوجوه لأخبرك، افتح روحك لتصطفي ما تشاء من تراتيلها، وحده قلبك يهتدي إلى ما يريد، جدك العاشق

ملأ قلبه بالعشق، سار فيه وإليه، أعجب شيخ القرية بفعلته، هزّ رأسه متعجبا، بعد صلاة مغرب استبقى الشيخ إمام المسجد ورجلين من أتباعه، شهدا على زواج جدك من معشوقته، بدا الدمع في عيني خادوم غامضا، مبتهجا بيومه، لكن لا يأمن الآتي، يستشعر جحيمه آت لا محالة.

خدم خادوم الشيخ الجديد، ومضى صغاره في حصباء الوادي يمرحون، يكتشفون عالمهم الجديد، يحملون تشاقيهم إلى الجبل الشامخ بجوارهم.

في الأيام الأولى كان جدك وعمه الجديد خادوم يعملان على غرس السعف حول شجرة غاف، أساس بيت يقيهم النظرات والزوابع، عائلة هجّرها العشق، وآواها في مكان مختلف، تبادل العاشقان النظرات دون اقتراب، في زحام الملمات والوجوه تقنع الأعين العاشقة بالنظرة والحسرة، بدا جدك غريبا بين وجوه العائلة المنفيّة، ارتضى سكنى الهوامش معهم، تفانى الرجلان في خدمة العائلة، يعوّضان شيئا ما.

***

عينك على ساقية فلج الحيلي..

يتناقص الماء المنساب يوما بعد آخر..

يثقل روحك المحل، كأنما الماء ينقطع عن شرايينك، فتجف تحت شمس سرور الصاهدة.

تأتيك رابعة بثيابها الملونة تحمل (الهاندوّة) المعدنية، تود لو أنك تحملها عنها، لعلك تشم رائحتها، رائحة الحنا والياس الذي وضعته على شعرها، كان الدهان الأصفر يكاد يجف على جبينها، أغرقك التخيل، عدت إلى تأمل الساقية، تخشى عليها من الجفاف وأنت الذي عرفتها جافة مرة بعد مرة..

اعتدت على دوران الأفلاك، بين خصب ومحل تتمرغ سرور، مرة لا تجد قطرة ماء، ومرة يغرقها الماء، في مهجرك سمعت عن جائحة السبعين، سأروي لك أكثر، حينئذ تداعت بيوت الشويرة، وبقي البيت العود شامخا بما يكفي ليشرف على طغيان الماء على اليابسة، التقت أودية سمائل ونداب والعق، الماء المندفع بشراسة قادما من وادي بني رواحة مع الشراج المنسكبة شلالات مجنونة من جبال سرور الشرقية والغربية، تساقطت بيوت ونخيل، وبشر، غرقت سرور في مائها، صعد الناس إلى الجبال العارفين بأسرارها، من الجبل الشرقي كانوا يلمحون الشويرة تسبح في بركة عملاقة من الماء تمتد حتى الوادي، البيت العود وحده أخرج طابقه الثاني.

لم تغادر سلامة بنت يحيى بيتها، صعدت للسطح كمن يستطلع أمرا صغيرا وعابرا، لمحوا في يديها كتابا تحاول دسّه بمنأى عن الأعين المتلصصة، لم يبق في الشويرة كائن إلا هي، ولا يعرفون من تبقّى من ساكني البيت العود، اعتصم الأحياء بالجبال يدارون المياه القاذفة صخور تتساقط من تلك الشوامخ الصاهدة بأحجارها القاسية.

رأوها حقيقة أو توهّموا، كان الجميع يفتش عن الجميع، والماء الهادر يأخذ العقول بعيدا عن جماجمها، ما يحدث أمامهم شيء سالب للتفكير.

بقيت في غرفة داخل الطابق الثاني، معك والدك هلال بن ناصر، أعمامك لم يكونوا في البيت، تفرقت بهم السبل، كأن بنت يحيى قادرة على فعل ما تريد، إلا أن تجمع عائلتها حولها، رجلها لا يعرف عن هجرته شيئًا، وجدك مع اخوته عمر وسعيد هائمون في أمكنة، منها داخل سرور، وآخر مفتوح على أودية سمائل وقرى الجبال، باحثون في تيههم عن مفقودات لا يجدونها، وقد تساقطت الأحجار أكثر من قدرتهم على جمعها، أو بعثرتها بعيدا عن دروبهم.

أمهلني قليلا لأتذكر المشهد أكثر، لأستطيع وصفه كما يستحق، حين عادت الشويرة إلى نفسها بعد انحسار الماء قليلا عن بقايا البيوت، وأجساد الدواب النافقة، انفجرت القلوب ببكاء لم تعرف سرور له مثيلا، كأنهم يكتشفون أن ما عبرها ليست القيامة، مجرد صورة مصغرة منها، وأن عليهم العودة للحياة مرة أخرى، رغم مشاهد الحطام والانكسارات، بعضهم دخل في نوبة صمت استمرت شهورا، تجمّد ماء أعينها لهول ما أحدثه الماء، كانوا يحصون موتاهم من البشر والدواب المسحوبة من أقوات الفقراء، كانت سرور لا تعرف سوى لقمة العيش يوما بيوم، هبط المعتصمون بالجبال يبحثون عن لقمة تعصمهم من الموت جوعا،

والشويرة بحر من طين تغوص فيه الأرجل، أطلّت الشمس على لوحة قاسية الملامح، راهن الناس على أشعتها تجفف أجسادهم وملابسهم، والطين يغطي كل شيء كعجينة خبز يحلمون بها، أصابتهم حيرة إيقاد نار، من أين لهم شعلة وكل ما حولهم غارق في الماء.

كأن البيت العود لم يكن موجودا وقت مرور الكارثة، لا دلالة على شيء فيه، هجعت البطون الخاوية حينما لم تجد عاصمها من الجوع، وفيما كانت الأعين تغمض أجفانها كانت أصوات صحون ملآى بالأرز واللحم تمر على البيوت، رائحة شهية أنستهم سؤال عابر الليل من أين جئت بهذا، وفي الصباح تواطؤوا على كتمان ما كان، خشية أن يكون حلما سيضحك به عليهم مستمعهم، استشعروا البيت العود، وأيدي سلامة بنت يحيى، لكنهم كتموا كل شيء.

بعد سنوات من جائحة السبعين سمعت سرور شهقة عالية، وانطفأت فجأة مثلما صعدت إلى كل أذن في القرية.

لم تكن في سرور، مهجرك يغوص بك في البحرين، والشويرة تعبرك كظل آسر في قيظ بحريني حارق.

تفتتت صخرة الحدث سريعا، أصابت شظاياها جميع الرؤوس بقوة، وتراكضوا صوب البيت العود، بدا البيت واجما، محفوفا بمرارة استشعرها جميع من تدافع ليعرف مصدر الشهقة، لم يتبيّنوها جيدا، لكنهم رأوا بعضهم البعض يتجهون صوب البيت العود، كان البكاء يأتي بكلمات من الخبر، البيت العود سيخلو، كما تخلو الشويرة، من سلامة بنت يحيى.

كأن الموت باغتهم بأخذ سلامة بنت يحيى.. هي العصية على الموت، على التفكير به، كيف يستطيع هذا الموت أن يلغي فجأة بنت يحيى من البيت العود، البيت الذي جاءت به، رسمت به الشويرة وشهدت على بنائها حجرا بعد آخر، وسعفة بجوار سابقتها.

توقعوا أن تعيش مئات السنين إن لم يكن آلافها، كالشيخ الذي يقترب من عامه المائتين وربما أكثر.

عرفوا الشويرة بسلامة بنت يحيى، كيف تكون بدونها؟!

والبيت العود، هل سيكون كبيرا بغيرها، وساكنته بنت خادوم!

يوم أن ماتت سلامة بنت يحيى بكت سرور بحرقة، تعالى نشيج النساء، قيل إن الرجال بكوا أيضا، لا يتذكرون كيف جاءت بينهم، كيف حلّت بالشويرة، هي أمها، أم الحارة التي ولدت من غيب لم يتبيّنه أحد، ولم يسأل عنه أحد، كأنهم تواطؤوا على تجاوز تلك الأسئلة، أو كأنه سحر بنت يحيى أفقدهم السير في اتجاه أسئلة كتلك.

كأنها عصية على الموت لم يصدق أحد أن سلامة بنت يحيى ماتت، خرجت من باب البيت العود للمرة الأخيرة، ستدفن مع بقية البؤساء الذين هجعوا إلى مقبرتها الجنوبية، بعد صف المزارع باتجاه الجبل.

سرى الخبر سريان النار في هشيم سرور وهي تتلقف الخبر غير مقتنعة تماما، نصف سكانها لم ير بنت يحيى، وغالبية النصف الآخر توهموا رؤيتها، النساء كنّ يصفن لأزواجهن من تكون هذه المرأة، والصغار

يرونها بمعيّة أمهاتهم إذ تعطيهم (آنة) تفرحهم دون أن يفهموا شيئا عنها، حيث لا توجد دكاكين في سرور تعني طفولتهم، عدا دكان خميس بن حمود الذي يأتي بحبات (الشاكليت) من مطرح في جرة بلاستيكية، يقع دكانه في الزاوية الأخيرة للسوق، قبل أن يتركه زواره باتجاه الدرب الموصّل للحبيك، تفصله عن دكان الشايب علي بائع الحلوى ساقية تظللها أشجار اللمبا، تحتها تكون المناداة على ما يحضره (الحمّارة) من أسماك وأشياء أخرى كالجح والشمام والسفرجل.

يعرف خميس بن حمود أن الآنة الحمراء آتية من يد سلامة بنت يحيى، لا تصله كثيرا، لكنه يدرك قيمتها جيدا، يقال إنه يصرّها مع سابقاتها في قطعة قماش ويضعها في مكان لا يهتدي إليه اللصوص داخل الدكان.

ساعة أن عرف خبر وفاة سلامة بنت يحيى قفز من مكانه، أيقن أن الآنات سينقطعن عن المجيء إليه بواسطة أيدي صغار الشويرة والحارات التي تذهب نساؤها بأطفالهن صوب البيت العود فيها، أزاح معلبات العنص وأكياس السيويا يستخرج صرّة الآنات الآتية من سيدة البيت العود، غامت في عينيه الدنيا إذ وجدها سوداء تكاد تتحرك كحشرات دائرية، رمى الصندوق بمحتوياته في ساقية الفلج، وركض صوب بيته يلهث لا يحادث أحدا.

سرت قشعريرة في جسده، سلامة بنت يحيى لم تترك له شيئا، أخذت آناتها إذ رحلت، كأنه لا يفترض لغريب أن يضع شيئا من ذكرياتها في

صرّة ذكرياته، أو صرة آناته، في سنوات تالية فسّر ود هاشل الأمر بأن أحدهم كان يرى (الدبي)[19] يتطاير فوق البيت العود، يحمل آنات بنت يحيى وقروشها التي أنفقتها ليلقيها فوق سطح البيت العود، يقال أن الدبي كان يأتي بها منذ عقود إلى بنت يحيى، هذه التي لا تخرج من بيتها، ويأتيها رزقها بما هو مكتوب في الدفتر الأصفر العتيق، مرة رأته المعلمة شيخة، فقدت نظرها فورا، وظلت تزفر سنوات، كمن يريد قول شيء ولا يستطيع، وكلما خانتها القدرة بكت بحرقة، هكذا أشاعت سرور الحكاية، لكنها، وخلال لحظة ما، حددتها بنت يحيى، انقطعت الحكاية، يكفيها أنها أوصلت رسالة إلى رجال سرور ونسائها، وآن لها أن تكف ألسنتهم عن المضي في الحكاية أكثر مما تبتغيه بنت يحيى، كعادتها.

***

خلا البيت العود من سلامة بنت يحيى، ووالد جدك لم يعد من غربته، ولم يعرفوا كيف يوصلون الخبر إليه.

للمرة الأولى تهجع الشويرة إلى مخدعها بدون بنت يحيى، حام طائر الغياب على بقية حارات سرور وضواحيها، فقدت أسطورتها، ستتشابه مع القرى الأخرى، توالت أشهر عدة على أمل أن تعود سلامة بنت يحيى فجأة لتقول لهم إن موتها لم يكن سوى حكاية أسطورية أخرى

(19) الدبي: نوع من الحشرات الطائرة له لسعة مؤلمة.

تضاف إلى حكايات أخرى تمتد منذ أن ولدت الشويرة وظهر من قلبها البيت العود، موتها مجرد اختبار لأمر في نفسها الغامضة، أيصدقون حلول الموت فيها أم أن موتها لا يشبه الموت الزائر للآخرين؟ بيدها أن تموت، وأن تتراجع عن ذلك متى أرادت.

من حملها للمقبرة؟

لا أحد يتذكر.

ولا حتى أنت.. تجذبك غيبوبتك، ويأسرك غيابك، وتضيع في المسافة الهائلة بينهما، لعلك تبتغي للحكاية أن تمضي في مسار التذكر..

والدك هلال يهيم في ملكوته الخاص، حيادي كأن الأمر لا يعنيه، أو أنه لم يستوعب ما حدث وما يحدث، وربما ما سيحدث.. رأى خميس بن ناصر وأيده في ذلك ولد هاشل أن عيني هلال وحدهما لم يعرفا دمعا على رحيل بنت يحيى فيما بكت سرور بحرقة، الحفيد (العود) لسيدة البيت العود، ستسألني عن جدك، لا أظنك تنسى إذ تنسى كل شيء، جدك العاشق، حكى لك كثيرا، عندما أتيقن من خلو ذاكرتك منه سأروي لك، وسأرى أثر روايتي في عينيك.

يركض سعود بن مبارك، عقيد الفلج، مذهولا، يغمغم، اختفى فلج الحيلي، وصل عند صوار طوي عاصي ثم لا أثر له، كان جثمان سلامة بنت يحيى يكاد يخرج من باب البيت العود باتجاه مغسلة الموت على ساقية الفلج، لمح الناس، بين الحلم واليقظة، ساقية الفلج تخرج من الجدار الشمالي وتنتهي في الجدار الجنوبي لحائط البيت، بين هيبة

الموت ورعب المشهد صمتوا جميعا، بأيد مرتجفة تحرك أصابع خديجة، مغسّلة الموتى، بحركات محفوظة تتم طقوس التكفين، تغالب إغماءة رعب تكابدها كي تكمل المهمة قبل أن تسقط ميتة بجوار الميتة، لكنها لم تستطع إخفاء ارتعاشة جسدها.

ساعد بن علي اتكأ، شابٌ، على جدار مسجد الدروس، بيده كتاب، له لون ذكره الناس بالكتاب الذي ادعوا أنهم رأوه في يد بنت يحيى يوم جائحة السبعين، تمتم كثيرا، ثم انحدر إلى ضاحية السوق، وغرق في نومة طويلة، يقال إنها استمرت ثلاثة أسابيع، كان الناس يأتون إلى المناداة على ماء الفلج، ويشترون السمك والبطيخ ما يجدونه من ربطات الفجل، حين استيقظ في اليوم الثاني والعشرين، تمتم باسم سلامة بنت يحيى بضع مرات، ثم صعد أعلى شجرة الأمبا، للمرة الأولى يفعلها.. وبعدها لم يروه بضع سنوات.

***

لم تكتشف بعد معنى أن ترحل سلامة بنت يحيى، لأن رحيلك في الأشياء أكثر إمعانا، باحث عن مجهول فتشت عنه في حارات البحرين وأسواقها، شوارعها، ساحلها، وحين أبت إلى سرور لم يكن في ذهنك سوى سلامة بنت يحيى، والبيت العود، لكن حواجزك أبقت بعيدا عنه، كل يوم تتأخر فيه عن العودة للبيت العود يصعد سد بينكما، يا لغرابتك

أيها المتداعي، عدت من أجل البيت العود والشويرة، لكنك، كأنك اكتشفت على نحو مباغت أنك عائد من أجل حضور سلامة في البيت العود، وغيابها عنه سيجعله مقبرة لا تريد الاقتراب منها.

كيف تموت بنت يحيى؟!

حطّ سؤال ساذج على عقول منتظرين أمام البيت العود.

كان الجثمان يوزّع إجاباته عليهم إذ سمعوا الأمر "اذكروا الله" فهبّ عشرات من البشر، وفي لحظات كانوا يعودون من المقبرة.

بين اليقظة والحلم لم يستوعبوا ما حدث.. كيف ساروا تلك المسافة بين البيت العود في الشويرة والمقبرة الواقعة في نهاية سرور صوب الجبل الشرقي؟!

سمعهم جدّك يتهامسون في مسجد الدروس، مضت أيام العزاء على حكايات لا تشبه الحكايات إلا في اساطيرها، قد لا تصدقها أنت، لا يهم، إنما الحكاية لها حق القول، والتصديق لا تشترطه.

كان عماك عمر وسعيد يدخلان المسجد المستقبل للمعزين من سرور، وما جاورها في بدبد ولزغ ووادي العق، يحملان دست حلوى، كل منهما ممسك بطرفه، بدت الدهشة تطلق آهاتها داخل الصدور، آنية فخارية بها معلاقين على غير عادة أهل البلاد، سألوا الشايب علي بن سالم الحلاو عنها، أنكر صناعتها، لذيذة حدّ الذهول، صفراء بزعفران وهيل لم يتذوقوها في حياتهم، أخذوا لقمات كبار، يرمقون بأطراف

أعينهم مجاوريهم حياء من تجاوز المعقول المعتاد في مجالس العزاء أو الضيافة، وكانوا يكبرون اللقمة ليستمتعوا بهذه الحلوى، كأنهم بكل لقمة يأكلون النسيان معها، نسيان من أين جاءت وكيف، وكلما دخل عمر وسعيد بالدست مرة أخرى بدا كأنه لم يمس من قبل.

في الصباح التالي لغياب بنت يحيى أسرّ حمدان المعلم في أذن الشيخ أنه سمع صوت سلامة يخرج من البيت العود، كان عائدا إلى الحارة بعد أن سقى ضاحيته بالفلج، صاخ السمع ليلتقط كلماتها تعاتب زوجها الغائب، سأله الشيخ إن كان قد رأى زوجها، هزّ حمدان رأسه بالنفي، وقال الشيخ إنه ربما جاءت به حيث يحلو للغائبين أن يلتقيا في فسحة بيتهما الذي جاء من الغياب أيضا.

أمضوا أيام العزاء كأنها يوم واحد، كان الرجال يتحيّنون الفرصة لمرور دست الحلوى عليهم كلما دخل غريب إلى المسجد قادما من مكان ما، واصطف أطفال الحارة ومن عرف بالخبر قريبا من المسجد ينتظرون أن يلقي إليهم هدّوب شيئا منها في أياديهم التي لا ترى ألوانها لفرط الغبار في جلدها، النظافة ترف، تعجبوا أن الذباب لا يحط على الحلوى رغم أن وجوههم يكاد الذباب يأكلها لكثرته، لم يبق بيت في سرور لم يذق من تلك الحلوى، كانوا يتسللون بكميات منها صوب منازلهم، وكلما انتهى ما بدست منها شعروا من غير دراية منهم بدست آخر ممتلئ، تضاعف طمع البعض، حدثته نفسه باستبقاء شيء منها حتى العيد، لم يبق عنه سوى أسابيع قلائل، والحلوى تمكث أكثر من حول.

شعروا بخوف شديد، في اليوم التالي لأيام العزاء السبعة، تناولوا الحلوى ليأكلوا منها، كانت شديدة المرارة، بعضهم أصيب بإسهال، وآخرون شارفوا على الموت لشدة الألم في بطونهم، قال بعضهم إنه لم يجد شيئا منها داخل الماعون الذي وضعوها فيه.

تلك إشارة من بنت يحيى لم تنسها سرور، لم يتذوقوا حلوى كتلك، ولن يتذوقوا.

وظلوا خمسة عشر عاما لا يأكلون الحلوى، مخافة من شدائد تلك الأيام، أشبعتهم حلوى أيام عزاء بنت يحيى.. وأخافتهم.

***

في الليل كان والدك هلال ينام في فراش جدته سلامة، يقوده حنين غريب إلى رائحتها، يحدق في سقف الغرفة، كان الغطاء يمنع رؤية السماء من الفرخة، ذات ليلة انسلّ من بينكم وصعد إلى السطح ليزيح الغطاء عنها، روى ود منصور أنه سمع هلال يروي لأقرانه ما شاهده في السطح، كانت اجساد من قطن تفترش كامل سطح البيت العود، وكانت دموعهم تجري على السطح الذي بدا بلون طيني، وأن المرزاب كان يبكي أيضا، لأن دموعهم فاضت وجرت كرذاذ مطر تكاثر بتؤدة حتى لا يكشف الأمر أحد، لم يستطع أحد السخرية مما قاله، خشي عدم تصديق سذاجة الحكاية، لكنه موقن بسطوة صاحبة البيت، حية أو ميتة.

"هذيلاك جنّها"، قال ود منصور، وصدقه جالسو السوق، تحت شجرة

الأمبا الكبيرة، مضى ود منصور في حكاياته عن سلامة بنت يحيى، وفيما كان يمضي في حديثه بدأ يشعر بصداع، أمسك رأسه، كأنه يحاول أن يمنع انقسامه إلى نصفين.

في المساء كان صوت صراخ منصور تسمعه الشويرة وما جاورها، أحضر له راشد الراعي سيورا جلدية ليربط بها رأسه.

قال الباصر لعبدالله بن منصور إنه يحتاج إلى وسم في رأسه ليجبر الجني على الخروج من ذلك الرأس الضاج بنيرانه، وتكاثرت الوسوم على رأس ود منصور، حتى حملت زوجته كبشا أسود إلى عتبات البيت العود وطلبت من عمك عمر أن يذبحه، وزعوا بعضا من دم الكبش ولحمه على أركان البيت وغرفه، ولم ينسوا السطح.

هدأ رأس ود منصور، لكنه فقد البصر..

كان الحدث أشبه بكاتم صوت لسيرة سلامة بنت يحيى، كلما همّت كلمات أن تخرج من فم أحدهم استدركه مجالسه بنظرات تطالبه بالصمت، يقال إن صراخ ود منصور ظل شبحا، ليلا يسير في السوق، ويسمعه أكثر من كان يجلس تحت شجرة الأمبا.

بغياب سلامة بنت يحيى في غيهب الموت، غابت جدتك عن الأنظار، لم يعد يراها أحد حاملة جرة الفخار إلى شريعة الفلج، ولا كومة الملابس إلى ساقيته، خرجت عمتك عائشة إلى النساء الذاهبات بجرارهن الفخارية، سارت معهن صامتة، وكنّ يثرثرن عن كل شيء

سوى البيت العود وما فيه، أتعبها حمل الجرة، حفيدة سلامة بنت يحيى تخرج من البيت العود لتشقى كالأخريات.

تناقل الهمس بين جدار وجدار، بين نخلة وأخرى، عائشة لها عينان جريئتان، وجسد ملتهب، تتبعها عيون من خلف خصاص السعف أو نوافذ البيوت الطينية.

رأت عمتك عائشة في الحلم والدتها بنت يحيى تنهاها عن هذا الفعل، حفيدة سيدة البيت العود لا تخدم بنت خادوم حتى وإن كانت أمها، يقال إنها دلّتها على السر، في الكتاب العتيق بضعة أسطر، وسيأتي ماء فلج الحيلي إلى ثقب صغير في جدار البيت العود لا يراه إلا المطلع على السر، هكذا فعلت بنت يحيى في حياتها، وأسرّت به إلى صغيرتها إشفاقا عليها من السير من حارة الشويرة إلى حارة الشريعة حيث تقع الوقبة الأولى للفلج، تظهر منها مياه الفلج للمرة الأولى بعد سير في العتمة من منابعه الأولى في وادي العق.

***

لم يتغير في المشهد شيء لا تعرفه، الأمكنة كما هي منذ خمسين عاما، أشياء أخرى لم يغيّرها الزمن كما تظن، جاء إلى الدنيا من جاء، ورحل منها من رحل، البيت العود ماثل أمام بصيرتك لا أظنه يفارقها مهما فارق بصرك، زحف عليه الدهر لكنه باق، بالطين الذي قام به، في ترابه شيء من الذين أقاموه، عرقهم، أنفاسهم، ذكرياتهم، ربما تحت

جدرانه كنز لا تعرفه، سلامة بنت يحيى كانت من قماشة تختلف عن الآخرين، لا أحد يعرف السرّ وراء رحيل زوجها، والد جدك، ربّما جدّك وما فعله، لكن لم يكن أحد يجزم بذلك، لأنه لا أحد كان يجزم بمعرفة ما يدور في فلك البيت العود، أسرار يتضخم وهجها كلما سارت في دروب سرور مسافات أطول، وسامرت الهاجعين بتعب إلى بيوتهم، يجترون ما تلقيه الشويرة من حكايات يضعونها على (صريدان)[20] شتائهم.

لا تتذكر العم سليمان، أغلق دكانه وغادر، استبقاه علي الهندي مفتوحا سنوات طوالا، ثم غادر أيضا، يأتيك من البعيد صوت ماكينة الكهرباء يقض مضجع الشويرة بتكتكاته المزعجة، لينشر بعض ضوء في ليل المكان.

اعبر المسافة وحدك، مسافة تلو سابقتها، تبعت مخيلتك كثيرا، سلامة لا يمكن أن تغيب، مجرد خبر تتقن سرور حبكته، لكنه لا يقترب من الحقيقة، حقيقة بنت يحيى ماثلة في داخلك، جئت من مهجرك البحريني لتكشف لسرور كذبها، سلامة هناك، في البيت العود، قابضة على سر الخلود، تود أن تقول لهم لا تصدقوا خميس بن ناصر، لا تركنوا إلى ادعاءات ساعد بن علي، صدقوا سعيد بن علي، حتما سيأتيكم بالخبر اليقين، رأى سلامة تمضي إلى مسجد الفج، كانت تطير بجناحين عجيبين، وضعت صخرة أعلى سطح المسجد، جاءت بها من

(20) الصريدان: إناء حديدي يوضع فيه الجمر للتدفئة في فصل الشتاء.

مكة، اسألوا لتتأكدوا أن البيت العود لن يخلو من سلامة بنت يحيى، وسلامة لن تترك البيت العود يتساقط جدارا إثر جدار.

ستأتيك المرأة الغريبة تلقمك صدرها تشرب حليبا لا يشبهه حليب..

وستعود رابعة الغريبة تطعمك جسدا لا يقاربه جسد.

تداعت غرفة رابعة كما تداعى بيت سلامة، وفارق هائل بين المرأتين، تستشعره، لكن قلبك لا يريد المكابرة، تود لو تعود رابعة، وأنت المتيقن بأن الزمن لم يعد صالحا لتعود سلامة بنت يحيى.. مدرك أنت أن الزمن ليس زمنك أنت أيضا.

قد تعود رابعة، معها رجل تقول لك إنه ابنك، أو امرأة ترى فيها أبوتك الهارب منها، تقول إنك لم تهرب، الأم هربت بما في بطنها.

لن يعرف أحد السر..

لا عبدالله بن خلف ولا سعيد بن سالم، ولا أحد من مجالسي السبلة كل صباح.. خميس بن ناصر غادر أيضا، أخذه الموت، كما أحاط بالكثيرين، تود لو أنه يتذكرك أيضا، ستتخذ الدرب إلى المقبرة، ستجلس هناك، تنتظره، تمكث يومين، يتبعك من أرسلتهم بقية سلالتك، يأخذونك إلى درب المفضي إلى بيتك، تسترجع حالا أنك ما زلت حيا.

استرح بعض الوقت لأخبرك بأمر آخر، كادت سرور أن تغط في سباتها، تكتشف سراديب النسيان لسيرة من جاء أو من رحل، لولا أن

مفاجأة أطلقتها بنت خادوم، سمعها أهل الشويرة، تفتت حصى الخبر على جميع جنبات سرور، بنت خادوم أوصت الشيخ أن يشتري لها خادماً وخادمة، نقل الطلب عمك عمر، لم يصدق الشيخ ما يسمع، "هذه مجنونة؟!".

كانت بنت خادوم تترقب، تتخيل كيف يسقط حجر الطلب على رأس الشيخ، تمنّي نفسها بيوم يصبح لديها خدم، تكون من العرّابة، هي حرّة إنما تقيّدها سرور إلى عبودية عتيقة لا تناسب امرأة سكنت البيت العود، حلّت مكان سلامة بنت يحيى، المرأة الأكبر في البيت، زوجة الابن الأكبر، أولادها ليسوا خدما، لا يمتلكهم أحد، كما امتلك الشيخ والدها وذريته.

تسترجع جدتك بنت خادوم ما تحفظه في ذاكرتها، ما تبقّى من ثقوب صغيرة تطل بها على الأمس، الماضي المعتّق في جرّة بيت الشيخ، طفلة تتعلّم كيف تسجد على أيدي الآخرين الذين لا يشبهونها وأسرتها في لونهم الأسود، تقبّل أياديهم، يعلمونها كيف تنكس رأسها أمام العرّابة، لا شيء يدعو للاستغراب، كأنهم من طينة ليست كالتي خلق الآخرون منها، تنام في غرفة جدرانها من طين وسقفها من سعف، اعتادت أن ترى دموع أبيها كدموع أمها، أدعيتهم لولي نعمتهم، لم تعرف معنى النعمة إلا لمّا سكنت البيت العود، وأطلّت من نافذة غرفة في الطابق الثاني ترى الشويرة من فوق.

جدتك لم تبت ليلتها تلك، تترقب الصبح أن يأتي بخبر من الشيخ،

ليست موافقته بالضرورة، لكنها مدركة أن حصاتها ستصيب رأس الشيخ الذي لم تعرف القرية سواه، يضيف خادما كل عام، يعرف كيف يشتري عبيده، يصلون إلى حيازته دون أن يعرف أحد من أين جاء العبد الجديد.

في صبيحة أول يوم للبيت العود من دون سلامة بنت يحيى نهضت جدتك بنت خادوم قبل الفجر، دارت في البيت العود، تفقدته ركنا ركنا، زاوية بعد أخرى، صعدت إلى الطابق الثاني، تفقدت غرفه، الروازن الممتلئة بجرار فخارية صغيرة ملونة، فتحت غرفة بنت يحيى، للمرة الأولى تدخلها، شعرت بالرهبة، خافت، خرجت سريعا.

وحدها غرفة سلامة بنت يحيى لم تجرؤ على فتحها، والخبز القليل الذي تصنعه كل صباح يختفي قبل أن يذوقه أحد، كانت بنت خادوم تخبز كمن يتلقى أمرا لا يشعر به ولكنه مجبر على تنفيذه، زادت (كيلات) الطحين وكذلك الأرز، أتعبها الجلوس ساعات أمام (الطوبج)، غموض الأشياء يرعبها، من يأكل كل هذا الخبز في غفلة منها؟!

أتذكر يوم أن تحدثت سرور عقب جائحة السبعين عن صحون خبز ساخن تدخل بيوتها في العشيات، قبل أن ينام الجياع؟.

تقلبت جدتك على فراشها، تنتظر الصباح كأنه يأتي إليها بخبر العمر، من يوم أن فتحت عينيها على الدنيا في عريش والدها خادوم، وحتى استوائها على البيت العود

شعرت أنها ولدت مرة أخرى ليلة اليوم الذي ماتت فيه سلامة بنت

يحيى، جدتك بنت خادوم ولدت مرتين، واحدة في العريش المتداعي، والثانية في البيت العود، البيت الكبير الذي ولدت فيه كبيرة، وأرادت أن يكون لها خادم مع أنها لم تعرف لبنت يحيى خادما، إلا الجنّ الذين كانوا يفعلون كل شيء من أجلها.

تردد الشيخ..

تساقطت جمرات الخبر في حارات سرور، لم تستطع الشويرة أن تحتفظ به وحدها، حتى السواقي روته للنخيل، بنت خادوم تريد خادما، وتطلبه من من؟! من الشيخ!

ترقبت سرور أن ينفجر الشيخ ويقتل بنت خادوم في اليوم التالي فورا، لن يستطيع أحد من أبنائها منعه، سيقتلها أحد من أهلها، خادم من أولاد عمها، هم جاهزون ليكونوا الرصاصة التي تنفجر في الجسد الذي يشير إليه الشيخ بالموت.

الشيخ ليس مجرد رجل أنجبته امرأة، بل له ظل طويل يتمدد على طول وادي سمائل مهابة، إذا قال كلمته سمعتها جبال سرور فأنصت كل حجر فيها، تطيعه كل نخلة لأنها لم تكن قبله، بل جاءت كل نخيل سرور بعده، رآها تنغرس في حفرها مجرد صرمة، فسيلة لا تكاد ترى، تكبر إذ ينظر إليها، إذ يسير بين ضواحي قريته وحوله حشد من خدمه يتسابقون لإزالة كل شائبة في طريقه، هو سيدهم، ولي نعمتهم، هم ليسوا أكثر من حجرة يستطيع الشيخ أن يركلها في أي وقت، ليسوا أكثر من فم يجيعه ولي النعمة متى يشاء.

الشيخ غامض كغموض البيت العود، لا أحد يعرف متى جاء، ولا من أين، عمره يقدر بما لا يحصى من السنوات، لحيته كثيفة ببياض غريب، جفناه بذات البياض، أسنانه أيضا، يرتدي عمامة شديدة البياض، طويل، أطول رجال سرور جميعا، إذا نظر إلى أحدهم بغضب يهتز بدنه، كأنما نسي الرجولة التي يتفاخر بها رجال سرور وهم يضغطون على أزندة الرصاص في بنادقهم العتيقة.

حين يثبت الفتى رجولته يعطيه الشيخ بندقية ومحزم رصاص..

ويزيد المخلصون المزيد من الرصاص، يأتي بها إليه رجال لا يعرفهم أحد في سرور، جوانٍ تحملها نوق تدخل القرية في يوم يعد من أيام الفرح، عند ساحة المدارس التي شيدت لاحقا يستقبل قافلة الجمال المحملة بجواني الرصاص، الرازحون يسيرون أمامها، وصولا إلى بيت الشيخ المتّكئ على جبل سرور الشرقي، يطل البيت على كل بيت ونخلة في القرية الممتدة طولا، وتصل عين المبصر حتى حدود وادي سمائل، هصاص والخوبار وما بعدهما.

لكن نهاره هذا جاء إليه بخبر لم يتوقعه أبدا، على شدة ما توقع، وما تخيل.

تناقلت سرور خبر غضبته، صوته الذي كاد أن يفجّر الشويرة، حتى غافتها الكبيرة توقفت عن التلويح بأغصانها مع الهواء، يقال إن الهواء كان شديدا لكنه عجز عن تحريك ورقة في الغافة الكبيرة، قال خمّاس إن غافة المغلغل في حارة الحبيك صدر عنها صوت كأنّه أنين مفجع.

مسعود ابن عم ليس بالقريب جدا لجدتك بنت خادوم، مسعود الذي فجّر رصاصة كلمته في صدرك وسط السوق، يوم أن ناداك "الشمج"، تجرأ، لكنه يدرك المرارة في حلقك، صهرك وإن أنكرته، جدّه صهر جدّك، في سرور يغدو الأقارب جميعهم "شماجا"، بنت القبيلة تقرّب بين قبيلتين، يصبحان نسبا واحدا، ابن القبيلة هذه يشدّ عضده بابن القبيلة تلك، لأن واحداً منهم تزوج فتاة من بنات القبيلة الأخرى ليس إلا.

غفت جدتك قليلا وهي تنتظر صباحا تاليا يأتي إليها بالخبر الأكيد، موافقة أو رفضا، وفي كليهما حجر أصاب رأس عربيّها السابق، سيدها، وسيد أبيها وأهلها، الشيخ بجلال هيبته وقدره.

رأت سلامة بنت يحيى تعطيها غصنا أخضر، فرحت به جدتك كثيرا، لكنها رأته فجأة في يديها عودا أسود، كأن صاعقة أحالته في يديها إلى غصن متفحم.

هبّت من نومها مذعورة، وأدركت أنها أصابت خطيئة لا تغتفر.

فجأة وافق الشيخ، لا يعلم أحد سبب موافقته المفاجئة، لكن ود هاشل لديه ما يقوله، روى أن جدتك بنت خادوم أرسلت إليه تعلمه بأن بنت يحيى أوصتها بذلك، وأن المطلوبين لخدمة البيت العود، وليس لها.

أرسل الشيخ في طلبها، سار خادمه جمعان إلى البيت العود، في الستينيات من عمره، أمضاها في خدمة الشيخ منذ ما لا يحصى من العقود، يكاد يركض حين يأمره سيده بشيء، قطع المسافة في دقائق

قليلة، كان يقف أمام البيت العود يضرب الحلقة الدائرية المعلقة في الباب بالخشب المتين، بدا البيت هادئا، كأنه لا أحد من سكانه داخله، خرج أبوك هلال حينما كان جمعان يكاد يختفي وراء زاوية البيت صوب الغافة، ناداه، عاد جمعان راكضا، أخبره بأمر الشيخ، غاب هلال إلى داخله قليلا ثم جاء بالخبر الذي لم يصدقه جمعان، بنت خادوم لن تذهب إلى الشيخ.

كأنك تسألني أين جدي حينها؟

سأخبرك، لا محالة، لكن دعني أنهي لك هذه الحكاية..

فحص جمعان أذنه جيدا، أدخل اصبعه في أذنه، استأذن في إعادة قولها، كرر أبوك ما قالته له أمه، بنت خادوم لن تستجيب لطلب الشيخ، قالت بصريح القول: وهل كان الشيخ يطلب سلامة بنت يحيى لتذهب إليه؟!

عقدت الدهشة لسان جمعان، حكّ رأسه كما اعتاد، كيف سينقل هذا القول إلى سيده، بنت خادوم ترفض طلب الشيخ، يتبعه أبوك إلى مجلس الشيخ، كان شابا في العشرين من عمره، لكنه رجل مشهود له بما أوتي من قوة جسم وصوت.

يقف جمعان أمام الشيخ ولا ينطق، يفقد لسانه، ينظر إليه الشيخ بعينين من نار، وجمعان ساكن كأنه يترقب العصا الغليظة تنهال على جسده، يعرف الشيخ ما يعنيه له جمعان، يعفيه كثيرا من ضربات

العصا، هو مستودع أسراره، له من العمر ما لا يحصى من السنوات، قيل إنه فوق المائة والخمسين عاما من العمر.

تناول الشيخ بندقيته ومضى.. خدمه يتسابقون بين يديه، باتجاه البيت العود، لم ينتظر جمعان أن يطرق الباب بالحلقة الدائرية الضخمة المعلقة عليه، هوى عليها بيديه، حاول هزها بيده اليمنى، شعر جمعان بورطة الشيخ، مد يده لساعد الشيخ، أنقذهم والدك، خرج فجأة، لم يروه منذ زمن، لكنه أحس بأمر يأتيه أن اخرج إلى هؤلاء القوم.

نظر الشيخ إلى أبيك وقد جمرت عيناه، أخبره أنه لم يطلب إلا.. جدتك بنت خادوم، تجنب قول كلمة أمك، رمى الشيخ بكلمات قليلة أصابت مقصده ومضى إلى سبلته، تضجّ بالناس، والخدم يتقافزون لخدمة ضيوف المكان، حيث يأمرهم سيدهم يأتمرون جماعات لا فرادى.

فجأة تراجع الشيخ كأنه تذكر أين يقف، للباب الخشبي صوت صرير مرعب، استدار بسرعة وغادر.

لو أصيبت الشويرة بضعف في ذاكرتها فلن تنسى يوم أن وقف الشيخ في المجلس إذ دعا إليه رجال القرية، واحدا واحدا، قبائل من هنا وهناك سكنت سرور، اجتمعت فيها، لا يرفضون طلبا لشيخ القرية، وإن بقيت ولاءاتهم لشيوخ قبائلهم ساكني القرى الأخرى، مجاورة، أو بعيدة، سألهم إن كانوا يعرفون خادوم، قالوا جميعهم بصوت واحد، وسألهم كرة أخرى إن كانوا يعرفون جيدا أنه اشتراه أبا عن جد، هزوا رأسهم جميعا بالتأكيد.

ألقى وابلا من الرصاص على رؤوس الجميع، ترنحوا كأنهم سكارى، كلماته أمضى من الرصاص.

الشيخ يريد عودة بنت خادوم إلى بيته خادمة.

مهما وصفت لك حالة الغم والهم في رؤوس أولادها عمر وسعيد ووالدك هلال لن تدركها، غمزة ولد خلف لا تساوي شيئا مما جرى لهم.

قال الشيخ إنه يريد عبدته السابقة أن تعود إلى عبوديته، لا شأن له بكم.. أعمامك أحرار، هم أبناء ناصر بن خلفان بن صالح، أحفاد سلامة بنت يحيى.

خميس بن ناصر مضى في الحكاية أبعد، قال إنها لعنة بنت يحيى سقطت أحجاراً على رأس بنت خادوم إذ رفعت رأسها لتكون سيدة البيت كأنها سلامة بنت يحيى، وقال ود هاشل في جمع أمام لمباة السوق إن صبية في الحارة سمعت صوت بنت يحيى تضرب بنت خادوم، وتنذرها بيوم تعود فيه إلى أصلها.

تسألني: أين جدك يومئذ؟!

كأن ذاكرتك لا تسعفك كثيرا على استرجاع الماضي، قاسٍ بما يكفي لينأى عنها..

خطط الشيخ بإحكام، أرسل والدك برسالة عاجلة إلى الإمام في الشرقية، أخبره أنه لا يثق في غيره، لا يعلم أحد ماذا في الرسالة، لكن والدك، كغيره، من رجال سرور لا يرفض طلبا لشيخها.

بعد أيام صحت سرور ذات نهار على خبر مفجع، بدا صغيرا جدا، ثم وقع كالزلزال على الشويرة وسرعان ما تتابع ليصل إلى لزغ ووادي العق، ومن الناحية الأخرى بقية القرى، استيقظ الخدم قبل الفجر كعادتهم ليجدوا بنت خادوم أمام بيت الشيخ، ومعها صرة تحمل ملابسها حسب الاعتياد.

أذعن أعمامك للأمر، كأن ما يجري تصحيح لمسار قديم انحرف عن اتجاهه الحقيقي، أو أنهم قالوا لأنفسهم غدا سيأتي والدهم وسيعرف ما هو فاعل مع الشيخ الذي قرّبه كثيرا، وإلا ما كان يرسله برسالته إلى الإمام.

رأوها كأنهم لم يروها من قبل.. بنت خادوم تذهب إلى شريعة الفلج تأتي بالمياه، تحمل على رأسها الجحلة، بوجه قدّ من شمع أسود تسير في الدرب الداخلي بين النخيل لتصل إلى الشريعة، وتنزل بعدها صوب الوادي حيث وقبة الحيلي الأخيرة.

تحاشت درب الحارة خشية أن تلمح البيت العود فتسقط منهارة على وقع حلم لم يكتمل، كأن جدتك موقنة بأنها لحظات امتحان عسير أشبه بكابوس مقيت ستصحو منه يوم أن يعود جدك من الشرقية.

لكن جدك لم يعد.. الأيام طالت أسابيع، والأسابيع أشهرا مديدة.

ومن يغب عن الشويرة لا تنتظره كثيرا، إدمان الانتظار يقود إلى اليأس، وسرور تعلمت اليأس لفرط انتظاراتها لغائبين ذهبوا وما عادوا.

لا تدري سرور أي سر هذا الذي انفضح، طارت رائحته من بيت الشيخ، رسالة وصلت من الوالي إلى الشيخ، يأمره أن يعيد بنت خادوم إلى بيتها، معززة مكرمة، خميس بن ناصر يقول إنه أمر من الإمام، والشايب هاشل يكرر إنه من السلطان.

رايته قمر العلية يطل على سرور مستديرا من الجبل الغربي فتتلقفه سعفات النخيل قبل ان يصل البيوت الطينية. لكنه يعانق البيت العود أولاً ثم ينساب الضوء على بقية مساكن البسطاء كأنه يلقي إليهم ما يفيض عن حاجته من ضوء.

في حوش بيتك تتكئ على جداره، لا البيت قادر على رتق ثقوب السنين المتكاثرة فوق عمرك، ولا ضواحي النخيل تسندك، تسند روحك، زوينة لا تعرف عن رابعة شيئا، أو أنها تعرف ولا تريد أن تنبش عليك جرحا جديدا، عاقلة كعادته، لكنك لا تسأل: أين هي زوينة الآن؟

في زمانك الذي غادرته، ولم توصله بك حتى ذاكرتك، أرادت جدتك بنت خادوم أن تكون سلامة بنت يحيى، لكن النساء لا يتكررن، خمسون عاما عرفت سرور سلامة، رآها قلّة من أهلها، والباقون تصوروها في أحلامهم، كأنما شبح سكن البيت العود يقال له سلامة بنت يحيى، ولولا أن قلّة من نساء الشويرة رأينها لظنوا أنها مجرد وهم لا أكثر.

إنما من يستطيع القول إنها وهم.

رجال قالوا إنهم رأوها في منامهم، صعدت إلى نخيلهم، باركتها، من

يرى في نومه بنت يحيى ينهض مستبشرا بالخير، يحاول تفسير حلمه على أنه خير قادم، رزق سيأتيه، تنتقل الحكاية بين نخيل سرور وضواحيها، فلان بن فلان رآى بنت يحيى في منامه، وقبل أن يكتمل النهار سيجد رزقا يصله بطريقة ما.

أما إذا رآها في الحلم غاضبة عليه فلا يتوقع إلا شرا، ينهض مغموما، يحاذر شرا يحيق به، يستعيذ في كل خطوة، وإن مرض له أحد من أولاده أو مات يدرك أن ذلك تفسير المنام الذي جاءته فيه بنت يحيى غاضبة، مع أنه لم يرها في الواقع ليقارب صورتها مع التي رآها في الحلم.

يقال ان سلامة بنت يحيى خرجت للمرة الأولى من باب البيت العود، سارت غير آبهة بالجالسين تحت الغافة ولا التفاتات الرجال قريبا من مسجد الدروس.. تخطت ساقية الحيلي شاقة الدرب المتلوي شرقا. صادفها ود هاشل فنكس راسه وعرف لاحقا انها بنت يحيى، للمرة الأولى يراها، لكن هالتها تقول عنها أينما سارت أو فكرت، وصلت الى الغيضان، متخذة حافة الوادي يمينا قاطعة الوادي الى مسجد الفج، على المساطيح المحاذية للوادي جهة الغرب حاولت العيون استراق النظر تجاه مسجد الفج المحاذي للجبل الغربي.

لا يعرفون عن النذر الذي حملته بنت يحيى للمسجد.. جلست على صخرة كبيرة تحت الغافة العتيفة هناك.. ثم رأوا رجلا بسحنة سوداء يركض باتجاهها.. وفجاة اختفت سلامة عن الأنظار.. ظنوا انها دخلت المسجد.. ركض النهار بسرعة وجاء الليل .. تجرأ ساعد بن علي وسار الى

هناك.. كان شابا يتقافز فوق صخور الوادي.. وعندما عاد ألقى الرمل في وجوه المنتظرين.. لم ير احداً في مسجد الفج.

***

لم ينجب جدك بعد فاطمة، كأنه فقد القابلية للعشق حينما عاد، أو لأنه عاد حينما فقدت بنت خادوم جاذبيتها، عاد إلى البيت العود، إلى ذكرياته الأولى، طفولته التي شقيت بتمرده، كبر هلال، صار شابا، عملاقا، يضرب به المثل بين أقرانه في القوة والأخلاق، حفظ جزء عمّ خلال أسبوع، لكنه مضى وراء فتوّته، فرض ذاته على الآخرين، حمل ملامح جدّه، حضوره في الشويرة، بشرته قمحية لكنه لم يرث من جده الآخر شيئا أكثر.

قرّبه الشيخ منه، سار به إلى حيث الغزوات، كان ماهرا في الرماية، يصيب الثعالب في الليل من خلال صوت حركتها، يسمع الحركة فيصوب بندقيته الصمع، فينال من عابر الظلمة أيا كان، بشرا أو دابة.

لم يستطع أحد رفضه حين أراد الزواج.. قال للشيخ أريد طلبا منك وقل تم، لم يجبن الشيخ من قول كلمة تم، كانت القبائل تقول كلمتها وهي عارفة بمكانتها عند من تطلب، قال أبوك للشيخ أريد الزواج من ابنة خالد بن هلال، ابن عم الشيخ، والفتاة ابنة اخته، فغر الشيخ فمه، صمت للحظات، تذكر كلمة تم، أومأ إليه أن يتركه، وخرج من سبلة الشيخ، موقنا أن جده خادوم لن يلاحقه هذه المرة، لن يرفض طلبه

لمجرد أن أمه ابنة خادوم، أخبر جدته سلامة بنت يحيى، ضحكت من فعل حفيدها، فرحت كثيرا بهذه الرجولة، لأنه سرّ جده الغائب، شبيهه، راوغت حنينها، وقالت: ستتزوجها.

أيقن أبوك أنه لا محالة متزوج من ابنة خالد بن هلال، جدته سلامة بنت يحيى أكدت له ذلك، ما تقوله بنت يحيى لا محالة ماض.

.. وتزوج أبوك شيخة بنت خالد، من سلالة شيوخ وأثرياء، أمك التي ورثت من أبيها خالد الإباء والكرامة، ومقصورتين بهما من النخيل والأشجار ما يضيف إلى مكانة ساكني البيت العود فوق مكانتهم.

لم تناد يوما جدتك بنت خادوم عمتي، كانت الحواجز جبلا صخريا لا تذيبه عوامل الطبيعة فتعرّيه، تقول لها أم هلال، وكأنها تستكثر اللفظ، تشعر به غصة في حلقها، بعد أسبوع صارت تناديها أم سعيد.

ولم تكن بنت خادوم تتأفف من القول.

لكن ذاكرتك لا ترغب في تذكر أمك شيخة بنت خالد، تهوي عليها أنجم سيرة سلامة بنت يحيى، وبنت خادوم.. ورابعة.

حتى زوينة، مجرد ظل، كما هو حال والدتك شيخة.

حين حملت شيخة بنت ناصر بك كبر حلم أبيك، قوته وشجاعته وحيويته، مع جمال ونبل أمك، ركن إلى حلم البنوّة الصافية من كل شائن، وكانت أمك تأكل الخبز والعسل والسمن كل صباح، واشترت لها جدتك سلامة بنت يحيى دجاجا من بيت خديجة، كانت تأكله بشراهة.

أصاب أبوك هلال غما شديدا حينما ولدت..

ظن أن العرق انتهى، قتلته رجولته، أراد ذرية لا تستجيب لدواعي العرق، والجدّ الذي لم يمنع ابنته دون أبيه خلفان بن ناصر، لكنه جده، والد أمه، لا يعرف أين مضت به الحياة، أو كيف، يرى والده ناصر، العاشق، ووالدته، بنت خادوم، المعشوقة، ينظر أي نار أشعلت هذه المرأة في قلب أبيه ليعبر إليها أودية سمائل وجبال الداخلية.

لو رأيت الدمع في عيني سلامة بنت يحيى وهي تتناولك فور خروجك من رحم أمك، للمرة الأولى يرى أحد دموعها، أما دمعها لفراق رجلها فكان في مخدعها تبل به الوسادة كل يوم لكن لا أحد يراه أو يشعر أن بنت يحيى تبكي، لأنها شامخة لا ترتضي أن يراها أحد ضعيفة.

تتذكر سرور الحكاية، يوم أن حملت سلامة بنت يحيى التفق وصعدت سطح البيت العود مصوّبة بندقيتها تجاه ضبع حام حول الغافة ليالي دون أن يتجرأ أحدهم على المساس به خشية أن يكون دابة الساحر سعيد بن حمد.

صوّبت سلامة بنت يحيى بندقيتها .. وأردته قتيلا..

سمحت لبعض الحكايات أن تتلوى في أفواه أبناء سرور، أرادتها لغرض في نفسها، قالوا إن الدابة لها، خالفت أمرها فحقّ التخلص منها، هي ساحرة فوق العادة، ليست كبقية سحرة سرور وما جاورها، أولئك الذين يأكلون لحوم أبنائهم وأقاربهم، هناك حيث يسمع الأهالي

صياحهم في شعاب وادي منصح، ويراهم الرعاة في سريّاتهم يأخذون منهم الحكايات حينما يعودون، تتلقفها أفواه الأهالي، ويخافون من ثأر السحرة أكثر من ثأرات القتل المتفشية في حارات سرور وقبائلها.

لم يستطع أحد الاقتراب من الضبع المقتول تحت الغافة، كأنهم يلمحون بندقية بنت يحيى متهيئة هناك فوق سطح البيت العود تحرس الضبع السابح في دمه، لم يتبين أحد لونه، كأنه لا لون له، أو كانما سحبت بنت يحيى اللون منه نكاية في المتفرجين كي لا يجدوا لونا يصفون به الضبع بعد أن أردته رصاصتها، ظهرا جاء الشيخ ووراءه خدمه، نظر إليه من بعيد ومضى.

هل تصدق أن الشيخ لم ير سلامة بنت يحيى أبدا، ولو من قبيل المصادفة، حكى ود هاشل أن الشيخ يعرف ماذا تريد بنت يحيى فيرسل إليها خادما له، سأل أحدهم ود هاشل عن ما تحتاجه بنت يحيى، سكت، كانما سلامة لا تحتاج شيئا من أحد.. أبدا.

مضت سلامة بنت يحيى في سكة الحياة كما لا يتذكر أحد، قديمة كقدم الشويرة، ممتد عمرها كامتداد سرور، امرأة تقاوم، لكن لا مقاوم لمرور الدهر والنكبات، أخذتك ويداها ترتعشان، كنت آخر أحفادها الذي تراه، وكأنها شعرت بأن ذريتها لم تكن كما حلمت بها، كان ابنها ناصر السهم الذي انغرس في خاصرة مجدها الذي ابتغته، لم تكشف

عن شيء حيال ذلك منذ أن عاد بزوجته بنت خادوم، منعتها أنفتها من الانتقاص من أي شيء داخل البيت العود.

جئت إلى الدنيا كما تعرف نفسك الآن، حملت في وجهك لعنة الملامح، صورة طبق الأصل من جد أبيك خادوم، قال أبوك لأمك يوم ولدت أن تمنع عنك رؤية الجيران، لم يجرؤ أحد أن يسأل أين المولود الجديد، بكت أمك فوق جسدك كثيرا، كأنك قد متّ، مع أنك تملأ البيت العود بكاء ساعات الليل والنهار.

كمن شعر أنه أذنب استغفر أبوك كثيرا، كان كالمصدوم يلوذ بالمسجد ليكفر عن خطاياه، انها أعطية الله، ليس بأيدينا أن نختار اللون الذي نريد.

لونك تحمله وزرا، ورابعة تختال في ذاكرتك تعبث بخلاياها، بين جمرين تتلظى، لا ماء الحيلي يبرّد حرقة جمرك، ولا ما حصدته من جاه.

***

.. ورحلت مع أبيك وأمك إلى البحرين.

غادرتم البيت العود ذات صباح، كأن قدر هذا البيت الرحيل، يرتحل ساكنوه فجأة، دون مقدمات تقنع الآخرين بصوابية قرارهم، لم يدر أحد أنكم راحلون، اتخذتم طريق الوادي، على يساركم مسجد الفج، على يمينكم سرور، المساطيح المفترشة لما حصدته سرور من تمر وبسر،

بعض الغافين لا يزالون يترقبون حرارة الشمس أن توقظهم، في الجبل الغربي علي بن سعيد يتخذ من كهفه سكنا، لا حياة هناك ترونها، وحده الصخر ساكن حول فوهة تقع في منتصف الجبل.

سار بكم حماران من سرور إلى مطرح، واحد عليه أبوك، والآخر عليه أمك تقبض عليك بما أوتيت من قوة تخشى عليك من السقوط فوق أحجار الوادي، وعلى الحمارين قليل من الزاد، تمر وأقمشة بسيطة سترتدونها في القادم من السفر.

لم تنتبه سرور أنكم غادرتم الشويرة.

حملتك أقدارك في رحلة طويلة بين البر والبحر، نحو البحرين القريبة البعيدة، تاركين في البيت العود ما تبقى من عائلة، كأن البحرين الغواية اللازمة للمسير، أو أن والدك قرأ فيها الحياة التي لن تتعبكم بمراودات العرق المندس، لم يتبع من ساروا إلى زنجبار.

سار وحيدا، كأنكما لم تكونا معه، وسرتما وحيدين، كأنما لا أب لك، ولا زوج لها.

أغرت البحرين أبوك بالحياة فيها.. وبالموت أيضا فيها.

.. وعدت وحدك، لم يكن معك أبوك ولا أمك، دفعت عائلتك الصغيرة أمامك، وتأملت البيت العود من خلال ثنايا ذاكرتك، وتركته باحثا عن مصيرك وقدرك.

كانت ذاكرتك ملهمتك، عبرها، لم تجد في البيت العود أحداً،

وجدت الريح تسكنه تضرب ما تبقى من نوافذه الخشبية، تركت بنت يحيى الأساطير ومضت، مضت كما مضيتم عنه، هي لمقبرة سرور، وانتم إلى اغتراباتكم، كل في طريق، لم تجد عمّيك عمر وسعيد، ولم تجد عمتك فاطمة.. ولم تسأل عنهم، ربما بانتظار أحد يقول لك أين سارت بهم الدروب.. وشتَّتَتْهم، كقدر أبدي يضرب سكان البيت العود، جاءت به ريح سلامة بنت يحيى، وستذهب به ريح تبكي غياب بنت يحيى.

أقمت عريشا على الوادي، سكنت به مع ذريتك، زوجتك وأولادك، صالح وخالد ورقية .. وسلامة، أردت أن يكون لسلامة بنت يحيى تذكار تحمله إحدى بناتك، فكانت ابنتك سلامة، لماذا لم تأت بقعة سلالتك المتناثرة في البحرين إلى عمان؟ حرت في الإجابة، سألك الشيخ أكثر من مرة، وسألتك الحارة مرات ومرات، ولم تتعب سرور في طرح الأسئلة عليك.

هربت منها إلى مطرح..

أردت سكنى مطرح فلم تستطع، أردت سكنى سرور فلم تقدر.

تنقلت بينهما.

خسرت معارك مع المرض، أخذ منك أولادك.. إلا سلامة، في كل مرة تبكي الفقد ينهار حائط منك، كأنك صورة بشرية للبيت العود.

لم يكن يرهقك شيء أكثر من فقرك..

أعطاكم أحد لا تتذكره شيئا من ملابسه، تغطون به سوءات الأطفال الذين بدوا غرباء على المكان، لا يعرفون لغته ولا ملامحه.

سعيت للعمل في كل شيء كي تكسب بضعة قروش تطعم بها عائلتك، مرة بنّاء حيث كانت سرور تتعرّف على البيوت الأسمنتية الناهضة فيها على ركام بيوت الطين والسعف، ومرات دلال في مواسم طناء النخيل، مع أن ود هاشل غضب على مزاحمتك له في حرفته التي توارثها أبا عن جد، هو وأولاد عمه، وبّخك في المرة الأولى الشيخ، قال لك إنه لا يليق بأبناء القبائل فعل ذلك، أنت سليل البيت العود، من سلالة بنت يحيى، لكن الجوع كافر.

اقترح عليك الشيخ أن تعمل بيدارا، لكن نخيل سرور تذوي كلما حلّ قحط عليها، وجفّت أضرع أفلاجها الثلاثة، بدأت نسيان ثأراتها، لم تعد كما حفظتها من روايات الكبار هناك، حائرة بين رصاصة قاتل ودم قتيل، كانت وإن لم يجد القاتل جسد ضحيته فيضع السمّ في روح نخيلها، تموت أسرع من الإنسان بعد أن يغدر به قاتله، تتناقل سرور حكاية المال المسموم، وتترقب في اليوم التالي خبر موت نخلة أو إنسان ردّا على ما حدث اليوم.

كان لحسن حظك أنك عدت في وقت الصيف، انتشر أبناؤك بين نخيل سرور يلقطون سواقطها، يغسلونه ويأكلونه، يسابقون الجميع حيث توقظهم قبل الفجر، مرات يجدون حبات من المانجو أسقطتها ريح البارحة، بدأ الشبع يتسلل إليهم كل صباح، اعتدت صعود النخيل أجيرا

عند هذا وذاك، بضعة قروش، وقليل من الرطب، وآخر من التمر، بدا بعض الزاد لديكم.

وفي نهارات كثيرة كنت تتقن صنع الطابوق الاسمنتي، وتجتهد لتصبح الأكثر استحقاقا للقروش التي بدأت بالتبدل إلى بيسات.

كنت ذكيا بما يكفي لتلفت أنظار سرور إليك، كانوا يطلبونك لبناء البيوت الاسمنتية، تجد فرصة عمل مضمونة لأسابيع، سموّك بالمستاد، وحين تتعب سرور من كنس بيوتها الطينية لتحل الاسمنت مكانها كنت ترتحل الى مطرح، كانت البنايات ترتفع، استأجرت عريشا في حارة جيدان ببضع بيسات تجنيها في يومين أو ثلاثة، تمكث بضعة أسابيع تعمل من الفجر وحتى غروب الشمس، وتعود إلى زوجتك زوينة بالكثير من البيسات، تقصّ عليها حكايات البانيان، وجيرانك البلوش في حارة جيدان، بدأت لغة جديدة تغزو لسانك، تشتري من جارتك بضع حبات من اللولاه، وأحيانا تمرق صوب خبّاز بالقرب من سوق مطرح لتشتري خبز التنّور ساخنا، تأكل بشراهة جائع يخاف مجيء الجوع إليه مرة أخرى، تتذكر أولادك فتأخذ إليهم شيئا منه حينما تعود إلى سرور.

هل تؤلمك الذكرى؟ أم أنك تسمعني لتتلذذ بها، وأنت ماض في سبحاتك الطويلة، تترصد الأمس باحثا فيه عن حياة كنت فيها، وكانت فيك؟!

هل تتذكر يوم أن قررت السير نحو البيت العود؟

قد لا تستطيع رتق ثقوب الذاكرة بعد أن بانت متسعة بما يكفي

لانثيال كل رملها منها، لونك يتكاثف تحت الشمس التي تحرق جلدك وأنت تكاد تحرث أرض الآخرين حاملا الهيس على كتفيك لا على كتفي الثور.

جاءتك حياة أخرى.. سليمان بن حمد عزم على الهجرة، كنت بيدارا في مقصورته المعروفة، قال لك إنها بين يديك أمانة، سيمكث في السفر سنة أو أكثر، وأنت تعرف أن المسافر يمكث سنوات تمتد لعقود، تتذكر كلمته، "النص بالنص".. لك نصفها وله النصف الآخر، شعرت بطاقة هائلة، نقلت عريشك من الوادي إلى المقصورة، قلت "خير علين يرجع سليمان بن حمد"، زرعت أرضها مما تجود به المواسم، تجمّلت نخيلها بعنايتك بها، لم تبخل عليك، جرت الريالات بين يديك بخيرها، من الأرض ومن البناء ومما تجود به نخيل الآخرين التي تعمل فيها بيدارا، عسقة لك من كل نخلة.

لا تدري أي ريح عصفت بسليمان بن حمد ليسافر إلى زنجبار، والناس يعودون منها، قيل إن له أهلا ومزارع هناك، تعب من الوحدة هنا، أولاده رفضوا العودة، حدثته نفسه بأنه سيتبعهم، يعيش معهم على أمل أن يعود، لم يستطع العيش إلا في وطنه الصغير، سرور، مقصورته الكبيرة وضعته بين أثرياء سرور، والثراء يحسب بعدد النخيل، وما يمكن أن يسترهنه المرء من بيوت الفقراء وأموالهم، إن كانت لديهم، حين يحتاجون للريالات.

نسيت زمن البيسات، تكاثرت حتى أصبحت ريالات لها جمال

الورقة المنسابة بين يد وأخرى، جاءك حمد بن ناصر يعرض عليك شراء جلبة صغيرة تحاذي مقصورة سليمان بن حمد، تشتريها لصاحب المقصورة كونه الجار الأولى بالشفعة، لكنك اشتريتها لنفسك، بضعة ريالات تعطيك ما لم تحلم به في حياتك، أن تكون هذه النخيل ملكا لك، بأرضها وما فيها، حتى الحشائش تأملتها لأنها ضمن مملكتك التي تخصك وحدك.

اشتريت اول جلبة لك، باغتتك فرحة لم تعهدها طوال حياتك، لا زلت تنظر إلى يوم مجيئك إلى سرور، جائعا، أولادك يبكون، ينتظرون صدقات تستر عورات أجسادهم ومعداتهم.

سنوات زادت عن عشر، كنت تتجول في كل سرور، لكنك لم تستطع الذهاب إلى الشويرة، كأن البيت العود سيبكي لو رأيته.. أو أنك ستنتحب لتضج سرور بحكاية بكائك كالنساء.

ومن يدخل الشويرة لا بد أن يرى البيت العود.. زحف النسيان إليه، حيث غادره بشره، واحدا بعد الآخر، من يتذكر النافذة التي تطل منها سلامة بنت يحيى، والغافة لم تعد هناك، ولا الضبع يتلوى برصاصة توهجت جمرتها منطلقة من البيت العود.

***

أورق الوقت في يديك كثيرا..

مرّت السنوات، وتلاحقت مع أخريات تكاثرت فوق بعضها البعض،

لم يعد سليمان بن حمد، في فص جلاص لك جلبة واسعة من النخيل، ارتهنت أكثر من خمسة بيوت في الحجرة والعقر، تكاثرت أملاكك، كنت سعيدا بتمددك، لكنك لا تستطيع أن تنظر إلى المرآة.. ولا نسيان عبدالله بن خلف إذ يغمز بعينه، كأنه لا يزال حيا أمامك، وكأن سبلة سعيد بن سالم باقية تجمع الشويريين إلى قهوة صباحية.

غبت عن سرور عشرات السنين.. وجئت.

معك غربتك تجرها أثقل من جسدك، لكنك قاومتها، انتصرت عليها، شيء واحد لم تَرُمْه، أن تهزم العرق القديم، كأنك لست القبيلي وسط رجال القبائل، ولست بين الخدم إلا ابن البيت العود، يكابد عناء الدهر، تصفّر فيه الرياح، كأن كل يوم تسقط طابوقة منه تشبه تساقط الأيام من عمرك، لديك مال كثير، لم تعد صالح الآتي من البحرين فقيرا لا يملك لقمة يومه، لكنك صالح بن هلال بن ناصر بن خلفان، جدك الأكبر الرجل الذي اقترنت به سلامة بنت يحيى، الآتية من غيب لا يعرفه أحد، أنت من السلالة القادمة من الغيب، وتحمل الغيب بين يديك حجرا ثقيلا.

تساوت كفة البشر، على اختلاف ألوانهم وأنسابهم، بقيت وحدك مفتونا بالأمس، بسكنى البيت العود، تستعيد مجدا ضائعا، لكن حيرتك أشد اتساعا، المرأة الغريبة لا تأتيك لتؤنسك ولو قليلا، ورابعة جرح غائر، تخشى من نزيفه أن يغرقك بمباغتة لا تقدر عليها، بين جرحين تتفتت روحك، واحد سكن أمسك، لا تقدر على الخروج من بئر دمه،

والآخر تخشاه كلما نقلت خطوتك، فتأتيك رابعة بمن تقول له إنك أبوه، ابن خطيئتك، تتناسل الخطايا من دمك من جديد.

تود لو تهجر كل شيء وتذهب إلى البيت العود، تسترجع حلمك حين جلست إلى عريشك في الوادي حينما عدت بعد غياب.. لكنك طوال الليل كنت تهجس بأسئلة عن كل أولئك الذين آواهم البيت، أين ذهبوا؟ شيخة بنت ناصر، أمك، سليلة بيت الشيوخ، أعمامك، عمتك عائشة، بقية السلالة، انقطعت الرسائل بين الشويرة والبحرين، لم يعد أحد يراسل أحدا، كفوا جميعا عن معرفة مصير بعضهم البعض.

فكرت أن تعيد بناء البيت العود، أن يستعيد مكانته، زوينة تشبه سلامة بنت يحيى التي عرفتها صغيرا، بعين الحب رأيت زوينه، إنما من يتذكر سلامة بنت يحيى الآن؟ بقيت حكاية في أفواه قلّة لا يزالون أحياء، رحلت سلامة بنت يحيى، وكأن عليها واجب سحب سلالتها من الحياة بأسرع زمن ممكن، تلقمهم فم الريح والنسيان، كما جاءت بهم أول مرة وهي تجر البيت العود إلى الشويرة.

لا تعرف إلا نفسك، لم تعد هي ذاتها التي كانت هنا، ولا التي عاشت في البحرين عقدا بعد عقد، ولا التي عادت إلى هنا، لم تعد صالح بن هلال الذي جاء لا يجد ما يستر به جوعه وعورته، كبرت بعدد النخيل التي اشتريت وغرست، والمنازل التي اقتنيت او استرهنت.

إنما غمزة عبدالله بن خلف لا تزال شفرة حادة تعمل في وجدانك لتعيدك إلى صفرك الأول، الحكاية العتيقة، تلك التي انغرست في

لحمك حكايات لم يبق منها الكثير حينما كنت صغيرا، ولكنها حامت حولك كغربان جائعة، تنعق بفجيعتها.. والغرفة الصغيرة في أقصى سرور تزعق في ذاكرتك، صوت رابعة تبكي، وهي تتحسس بطنها، وهي تغيب في المجهول، يحاصرك ليقتص منك.

تمشي بوهن في حارة السوق، بدأ أصحابه في هجرانه، لم يبق منهم إلا قلة لا يزالون يتباكون على ماض فرّ من بين أيديهم بسنوات أعمارهم تاركا إياهم لحسرات تتلوها حسرات.

خميس بن حمود لم يعد هناك، ولا الدنجو الساخن في صحنه يبيعه في لفائف ورقية، ولا خلفان بن عبدالله يجلس جلسته المعروفة أمام باب دكانه الواقع على الدرب المؤدي إلى مدخل الهبطة، آخرون هجروا السوق أو هجرتهم الحياة، بقي السوق يقاوم الاندثار، المناداة اليومية على السمك تلاشت، السيارات تذهب إلى قرية فنجاء القريبة لتعرض محتوياتها في سوقها الناهض بقوة، لم يعد السوق جاذبا لشيء.. إلا البكائيات على أطلال.

تعود لك الذكرى بقصة العناد بينك وغريمك عبدالله بن خلف، كان الدلال يصرخ بأعلى صوته على سمكة، بعنادكما تجاوز سعرها الريالين، كان الريال كبيرا، ضحكت عليه وانسحبت، تجرعها بريالين كاملين، ضحكوا عليه، بضحكتك أبنت لهم عن نيّتك المبيّتة لتحميله ثقل ثمنها، أخذها المسكين، صغير حجمها في يده، كبير سعرها على قلبه، لكنه أعاد إليك السهم سريعا.. وكانت غمزته التي لا تنساها في مجلس

سعيد بن سالم، لا تتذكر هل هي غمزة واحدة، أم غمزات مستعادة، في صحوك أو في حلمك.

لا زلت تجلس على جدول ساقية فلج الحيلي، مخلوق من هذا الماء أنت، ومن هذا الطين الذي يدمغ أقدامك كلما سقيت أحد حقولك الغنية بأجود أنواع النخيل وأشجار الموز والفيفاي، يدمغ الطين ملابسك، تغسلها من ماء الحيلي المنساب، طين لا تتبيّنه، تؤنّبك زوينة، تعاتبك على بخلك وأنت قادم من (المال) صوب البيت الكبير على ضفّة الوادي كأنك تهرب قدر الإمكان من رؤية البيت العود مستكينا في قلب الشويرة.

- على هذا الخير الذي لديك ولا زلت تصر أن تسقي أموالك بنفسك!.

- بهذا كوّنت أموالي.

- لكنك شيّبت، وصلت التسعين أو أكثر، أكثرهم جلبوا بنجالية يساعدونهم، لكن بخلك سيقتلك.

- هذه حياتي، كيف سيسقيها الغريب كما أفعل أنا؟! يا زوينة، والله أكاد أبكي عندما أرى أجنبيا يصعد نخلة من نخيلي، أدفع ريالين لولد مصبح ليخرف لنا الرطب ولا أدفع ريالا لأجنبي، ود مصبح من هذه الأرض على الأقل.

- أتمنى ترتاح.

- راحتي عندما أرى ماء الحيلي يصل إلى كل نخلة، وأرى كل نخلة

تكبر، يتحوّل لون الخلال من الأخضر إلى الأصفر أو الأحمر، وأرى الرطب في العسوق.. تلك راحتي وليس الجلوس كالنساء.

- عنيد، كعادتك.

وتترك زوينة في جلستها الأثيرة على شرفة البيت الكبير لتتأمل جريان السيارات على الجسر، متعتها من يوم أن انتقلتم إلى البيت الجديد، مودعين بيتكم القديم الذي اتسع بهمجية مرور العقود على ساكنيه، كان عريشا، بجواره بنيت أول غرفة إسمنتية، توسع رزقك أكثر، أضفت غرفة ثانية فثالثة، كنت تؤجل بناء بيت كالذي يمتلكه الآخرون، غنيهم وفقيرهم، لتبني ذاتك أكثر فأكثر، تشتري منازل وتقتني أخرى بالرهن، كما تفعل مع ضواحي النخيل.

فجأة انتبهت، وقد شارفت على السبعين أنه يليق بك بيت يستعيد أمجاد البيت العود، أردته على الضفة الأخرى من سرور، باتجاه الجبل الغربي لا يفصلك بينه إلا الوادي، والشارع الذي فاجأك عندما عدت من البحرين، كانت سرور تتزنر بجسر يمتد من أولها إلى آخرها تسير على إسفلت شارعه السيارات، لم يعد الوصول إلى الوادي المنبسط حتى حافة الجبل سهلا كما اعتادت أقدامك الصغيرة يوم أن كانت سرور صغيرة.

خصصت غرفة لابنتك سلامة، العائدة بطفلتها رقية، بعد أن فقدت الزوج، مرت سنوات طوال على الحادثة، لم تعد سلامة صغيرة وقد شارفت على الأربعين، ولم تكن رقية إلا الفتاة التي تخاف عليها وأنت

تتبيّن شقاوة لم تعرفها في الفتيات عندما كنت تعرف الفتيات في مهجرك البحريني، رقية تمتلك الخلطة السحرية للجمال، بدت لك أجمل من سلامة بنت يحيى.

لو بمقدورك أن تخرج من ذاتك، لو أن المال يمكنه شراء ذات أخرى يختار المرء ملامحها ولونها.. وذكرياتها، خطواتها وخطاياها.

بالمال أردت شراء المشيخة والوجاهة، لكنك عجزت.. صورتك في المرآة تحاصرك لتخنقك بلعنة العشق القديم، ورابعة تنهش ذاكرتك بقوة.

تتذكر يوم أن وضعت اسمك على قائمة المترشحين لمجلس الشورى؟!

عصرت سرور سيرتك، عركت كل شيء في البيت العود، إلا سلامة بنت يحيى، بدت بعيدة جدا، لم يكن في البيت إلا سلالتك، واندثاراته، مع أنك لم تعرف سكنى البيت العود منذ نصف قرن.

تودّ لو تحمل إليه جرافة لتزيله عن وجه الشويرة، لكن كيف تمحوه من عقول الناس، خاصة أولئك الذين عرفوه من كبار السن، المعمرين، في سرور؟

قالوا إنه لا ينقص مجلس الشورى إلا البيادير؟

وددت أن تعدّد عليهم ما تمتلكه في سرور، لكنك تقف امام صورتك وتقول إنك لم تمتلك حتى نفسك، رهنتها إلى العشق القديم، سجنتها فيه، وكل خطوة تسير عليها محفّزها ما كان من أمر العشق القديم.

دخلت بقوة مالك، لكنك لم تتجرأ أن تضع صورتك كبيرة على مدخل سمائل كما فعل آخرون، باغتك خجل، وانسحبت إليه، لاعنا للمرة المليون ذلك الجد الذي أورثك ملامحه لعشق مجنون تحملت وزرَه حياتُك بأسرها، ولاعنا رابعة، تنغّص عليك فرحك، كأنما ستقف أمام الناس لتقول لهم إنها حملت بالحرام من هذا الرجل الساعي للوجاهة، وأن له ابنا أو بنتا من فصيلة الغبون.

كنت تستريح إلى ظل شجرة ليمون ومعك ما لا يحصى من الأفكار، تأمر عمّالك البنجاليين ليخرفوا هذه النخلة وتلك، يوم ان جاءك الشايب هاشل، لم تتغير ملامحه كما رأيته منذ أن كنت طفلا قبل ستين عاما أو أكثر..

- هل بعتم البيت العود؟

- لا ، من يبيعه إذا كان أصحابه لا يعرف لهم مكان؟

- رأيت عمالا يعملون على إزالته.

- ماذا؟

- يقال إن رجلا من إزكي اشتراه.

- اشتراه! من باعه إياه؟

- صار خربة، للكلاب والسنانير، تتذكر؟ كم مرة وجدوا فيه خميّوس وفوقه...

- ما اريد أن أتذكر شيئاً، البيت العود لنا.

- عدة مرات البلدية قالت إنه خرابة وعليكم إزالتها.

- هذه الألاعيب أنا أعرف مصدرها، بس كيف باعوه، من سمح لهم.

- شيء عندكم أوراق تثبت؟

- لا.

- إذن من يستطيع كتابة أوراق تثبت يستطيع أن يبيعه.. فافهم.

انتفضت بقوة، نسيت كل أملاكك، غدا البيت العود ملكك الوحيد، لم تر سواه، نسيت الشايب هاشل، زعقت بصوتك، قلت كلاما كثيرا.. أكثر مما ينبغي، سمعته الشويرة، طارت به سرور في غمضة عين، وصل إلى سمائل، مترددا في جبالها، مرة إثر مرة.

رأيت الشيخ في سبلته، بجواره من لا تتذكرهم جيدا، رآك غاضبا، يعرف ما يغضبك، توقع مجيئك، رغم أنك لم تدخل مجلسه أبدا..

- تفضل..

- جئت لأسألك، من يهدم البيت العود؟

- تقصد الخرابة.

- بل البيت العود.. ويبقى البيت العود.

يضحك الشيخ، ويضحك من معه كأنّ الأمر سباق على ارتفاع الضحكات، ترتفع حدة غضبك..

- كنت أنوي بناءه.

- لا تتعب نفسك، هناك من يبنيه.

- ليس من حق أحد أن يبنيه.. نحن أصحابه.

- لا تغضب، كم ثمن نصيبك من الخرابة وأنا أعطيك نصيبك فورا.

- البيت العود لنا.

- الرجل الذي اشتراه لديه ملكية باسمه تثبت أن البيت العود له.. يا ابن الحلال لا تتعب أعصابك، صرت رجلا كبيرا ولديك أموال تكفيك وتكفي أحفادك وأحفاد أحفادك.

- مستعد أقتل هذا الذي اشتراه ومن باعه إياه.

- دعك ممن باعه إياه، لكن الذي اشتراه هو من أهلكم أصلا.

- من؟

- واحد من أبناء أخوال أبيك، مقدم في الجيش، الله وفقه، وبفضل الله تعالى وبجود السلطان ناوي يبني بيتا يمكن أكبر من بيتي.. لا تغضب ولا تسوي "ربشه"، أنا أخليه يعطيك ألف ريال، وانت تعرف أن الخرابة لا تساوى حتى ألف ريال.

نهضت بغضب.. تصرخ في وجه الشيخ "انا ما محتاج، أعرف كيف أسترد البيت العود، لكنك أيقنت أنه لا حيلة لك، يبتسم، يقول لك إن الزمن تغيّر، الجميع أحرار، بكم اشتريتم البيت العود ليعطيك فائدة فيه..

وددت لو تركل الشيخ، تخنقه، لم تنتبه إلى مجالسيه، خرجت تحملك قدماك كأنهما تخلّيا عنك أيضا، بخبطات تكاد تخرق المسافة بين بيت الشيخ والبيت العود، عقلك توقف عن الحركة، ترك كل شيء لخطوات قدميك، طفت بالجرافة وهي تزيح جدران البيت العود المتساقطة، واحدا بعد آخر، كدت تبكي، كأنها تغرس أشواكها الحديدية في جنبك، خاصرتك المتوجعة بثقل كل السنين، التي عشتها، أو لم تعشها، منذ حكاية جدك إذ يتسلل لواذا إلى بيت خادوم، لو لم يعشق، لعشت حياة أخرى، كما تتوفر لدى آخرين، لا يرهقهم لون أو عرق.

غصت في تخيلك، الشبابيك المتساقطة بخشبها المتهالك حملتك نحو البعيد، كأنك بسلامة بنت يحيى توزع نظراتها على الحارة، كأنك تسمع صوت طلقة الصمع من نافذته باتجاه الذئب الحائم حول الغافة، كأنك بها تمسك بدفترها العتيق تحت المطر، تصيب الجائحة كل شيء في سرور إلا البيت العود.

انتبهت فرأيت سيارة مرسيدس الضخمة تقف بمنأى عن الغبار المتطاير من البيت العود، اقترب الرجل المعتد بنفسه منك وهو يحاذر وصول الغبار إلى ملابسه العسكرية الأنيقة، سلّم عليك، وأخبرك دون أن تسأل بأنه اشترى البيت ويتمنى أن يلتقي أحدا من سلالة أصحابه، لأنهم أهله، تفرقت بهم بلاد وآوتهم بلاد، رأى صمتك فآثر الصمت، نظر إليك بريبة، ووزع بعض النظرات على الجرافة وهي تأكل كالحيوان العملاق ما تبقى من فتات البيت العود.

جرت دموعك، حاولت إخفاءها بمصرك العتيق، لكنك فتحت عينيك لدهشة لا تحلم بها، تبخر مشهد الآلة الحديدية من أمامك، تبخر الرجل بسيارته الفارهة، لم يعد سوى المكان وحده جاثما أمامك، آمنت مرة أخرى بأن سلامة بنت يحيى لن تسلم بيتها لأحد، هناك جنّها باقون، يحرسونه، تساقط الطين القديم، عليك واجب أن ترفع أعمدته من جديد، البيت العود بملامح عصرك، حتى وأنت تعيش غروبه الأخير.

في ساعة لا تعرف مقدارها كنت تئن على فراشك، تكرر اسم الشيخ والبيت العود وسلامة بنت يحيى.. تشابهت الساعات لديك كتشابه السنوات، والأسماء.

***

الشويرة فضاء متسع من الغربة، يضيق حول ناظريك.

لم تعد تلك التي رأيتها قبل سنوات طوال، تجنبتها حتى لا ترى البيت العود، لو أنك رأيته لغلبك الحنين، وطلبته إعمارا قبل أن ينقض عليه أحد الذين جعلهم عشق جدك العتيق من أبناء أخوالك، كل واحد منهم خالك، يتناسلون ليصبحوا جميعا كذلك، أنت ابن الأمس، لا تجاهر بمشاعرك خشية القانون، تضع عنصريتك الكريهة بين جنبيك، لا تملك إلا أن تلعن تاريخك، تود أن تلغي من جيناتك نوازع ذلك العرق الذي دسه جدك العاشق في معشوقته، يسألك ساعد بن علي:

- أما زلت على ضلالك القديم؟!

- وهل هذا ضلال، ابن الأصل يبقى ابن أصل.

- وأنت من أي أصل ترى نفسك؟ لو لم تلتق نطفة جدك مع جدتك لما كنت أصلا.

- لكن الناس..

- تحرروا في الظاهر، ولا يزالون في بواطنهم..

- لست وحدي، المجتمع عنصري رغما عني وعنك، لماذا أحمل هذا الوزر رغما عني؟!

- أنت من حملت الوزر وعليك الصبر على حمله.

- بل حمّلني إياه جدي.. أبي اختفى، ومعه كل رجال العائلة من أبنائه، ما الذي أعادني إلى سرور؟ في البحرين طاردني عرقي، لكن البيت العود لم يكن يضغط على نسبي كما هو الحال هنا.. كنت أكثر حريةً وانعتاقا من ثقل الماضي.

- لماذا عدت؟

- قدري.

- كما كان قدر جدك.

- كان اختياره.

- نختار ما تريده لنا أقدارنا، قدرك الذي عاد بك من البحرين هو اختيارك أيضا.

- أنا رجل قبيلي.

- لم يقل أحد غير ذلك.

- أرى في عيونهم ما يشير إلى...

- أنت ترى بعيون وهمك، بعيون الشيطان الذي يسكنك، اقتله وعش حياتك، الانسان الهنقري صاحب الأموال.

وأنت لا تستطيع أن تعيش، يجثم البيت العود فوق رأسك، تاريخه على قلبك، يتسلل طينه إلى رئتيك، تغمض عينيك لتنام، ترى الجرافة تقضمه قطعة بعد أخرى، يتسلل إليك رجل تتوهم أنه خادوم، والد جدتك، يلقي على عنقك ثقل يديه، تئن في نومك، تنهض بعرق جم، تخاف عليك زوينة، بجمالها الأنيق الذي لم تزعزعه السنوات تعبرها عقدا بعد آخر، تبسمل وهي تجفف عرقك، تنادي على حفيدتك رقية أن تذهب بك للطبيب، بالسيارة التي اشتريتها من أجل حفيدتك الجميلة، بقية سلالتك، الحفيدة الوحيدة لابنتك الوحيدة، هكذا تغيب السلالة في دهاليز العتمة، تعيش مع ثلاث نساء، زوجتك وابنتك وحفيدتك، لديك من الأموال ما لا تقدر على حسابه، بذاكرتك العتيقة..

سقمك وحده يعيد إليك سيرة ثروتك، لن تذهب إلى ابن يحمل اسمك، ورابعة هناك في الغياب تكتم سرها المؤرق، ستتوزع ثروتك بين ثلاث نساء، تحلم كثيرا أن تشبه إحداهن سلامة بنت يحيى، فارق الحلم زوينة وهي تزحف بعمرها نحو السبعين، لم تعد الطفلة التي أخذتها

وأنت تشارف الأربعين..

والزمن لم يعد به متسع لسلامة بنت يحيى مرة أخرى، البيت العود ذي الطابقين شابهته عشرات البيوت في سرور، غادرت الحكايات أطراف المساءات، بقي الشيخ والشايب هاشل يرويان لمن يريد أن يسمع ما كان في تلك الأزمان الغابرة.

خلت الشويرة من أي شيء دال على البيت العود..

حاول البعض تمرير حكاية عن أنهم سمعوا صوت بكاء امرأة، ليلة أن اجتثّ البيت العود من مكانه، لم يلتفت للحكاية أحد، ماتت قبل أن تمشي في دروب حارات سرور كما اعتاد أسلافها، والشايب هاشل حفر لها القبر سريعا، ترك الشويرة، أحياءها وأمواتها، في غرفته في بيت أحد أحفاده يحاول أن يسترجع شيئا، كأنهم ملّوا من حكاياته المعادة والمكررة، وإذ تسير بمقربة من نافذة تلك الغرفة المطلة على أحد دروب الشويرة قد تسمعه يحاول أن يحدّث العابرين، وحينما لا يجد، يرتد إلى نفسه يخبرها عن البيت العود، والشويرة، وسلامة بنت يحيى، وعن الرعاة وما لا يحصى، لكن صوته يغيب في بكاء مكتوم، حيث الحكايات تموت على لسانه قبل أن يقولها.

***

لم يكن الشاب إذ رأيت حفيدتك رقية تهبط من سيارته إلا وجها من وجوه الأمس التي تفرّ منها، أناقته لا تخفي ملامحه التي جاءت كملامحك، وأنت غارق في هذه الملامح مائة عام أو أكثر، أورثتك ذلا خفيّا تحاول مداراته، كأن كل نخلة تشتريها عتق لك، كل بيت تسجن صاحبه في قيود الرهن شهادة براءة لك، إنك ابن القبيلة، من سلالة بنت يحيى، لا سلالة بنت خادوم، رأيت في وجهه ملامح منك، قد يكون ابن رابعة، لا أمان للقدر.

انتفضت خلايا دمك، رقية الأقرب إليك، صغيرتك التي كبرت لتدخل الجامعة وأنت ما زلت تراها الطفلة الشقية التي تسعدك بابتسامتها، رأيت فيها ملامح أمها، ابنتك سلامة، وقد عاشت معك منذ وفاة والدها في حادث سير.

لم تعرف أبا إلا أنت.. بمائة عام تزحف، ترتق المسافات بين عمريكما، كأنك استعدت نفسك فجأة، لم تعد العجوز المتهاوي السائر في سديمية غيبوبته.

تقترب منك وأنت واقف أمام باب البيت لا ترى ما يستدعي انزعاجك، ذات الابتسامة التي لا تلتقي مع مرجل غليانك.

- من هذا الذي جئت معه؟

- لا أحد.

- تكذبين؟!

- لا يا جدي، لن أكذب، زميلي في الجامعة، وسيأتيك قريبا يخطبني.

- نعم!! أنت مجنونة.

- ربما، ولكننا نحب بعضا.

- هذا..

- إنسان مثلنا، له قلب ومشاعر وصفات حسنة ربما أفضل منّا.

- أنت لا تعرفين ما تقولين.

- بل أنت....

- أنت قليلة الأدب، لم أعرف تربيتك كما يجب، أنا قبيلي، كل سرور تعرفني أنّي قبيلي، أبا عن جد أنا قبيلي، أما هذا...

كأن الريح لا تزال هناك كامنة، تتحيّن الفرصة لتعيد الأشياء إلى سيرتها الأولى، تكرّرها، تحاول أن تستعيدها مرة إثر مرة، على أن ما حدث ليس خطأ بشريا بل قدر لا مناص منه.

التحام النطف قدر يأتي تبيانه من أعلى عليين.

رأيت في ملامحه نسخة من ملامح جدتك بنت خادوم، كأن السلالة تتبعك، لكن الزمن تغيّر، لن يستطيع الشيخ أن ينفي والده إلى بقعة مجهولة، كما أن النفي لم يمنع جدك من التسلل إلى عرق بقي لعنتك الأبديّة.

حاولت أن تقول لا ، أن تصرخ، أن تمنعها من تكرار فعلة جدك، لكن

رقية عصيّة عليك، قالت إنها حرّة، فاجأتك الكلمة، قالت إنه زميلها في الجامعة وتحبه ويحبها، صدمتك العبارة، قالت أشياء لا تحصى، صرخت بمفردات الحرية الشخصية، والمساواة، لكنك أنت الملسوع لك حسابات لا تفقهها رقية، كفرت رقية بالبيت العود، البيت الطيني المتساقطة جدرانه، غير القابل للسكنى إلا في أوهامك، ساوت به الأرض آلة عملاقة، ولم تشفع له سلامة بنت يحيى، ولم يتمرد أحد من جنّها.

تذكرت بندقية قديمة قيل إنها حملتها سلامة بنت يحيى منذ أكثر ما لا يعرف من الزمان، جاءت بها حين نهض البيت العود في قلب الشويرة ليكون منشؤها، قيل إنها التي قتلت بها الضبع تحت الغافة، وحملها جدك سنوات عمره، ودسّها والدك بأمان في قلب البيت.

حملت سنواتك المتكدسة..

وتناولت البندقية.

وألقمتها الرصاصة..

حلقت حولك نساء، سلامة بنت يحيى، بنت خادوم، المرأة الغريبة، ورابعة، وأخريات يتدفقن كرصاصات أخرى، أو مناديل بيضاء يلوّنها سريعا دمك النازف.

إصداراتنا2013

م	الكتاب	نوعه	المؤلف
1	سرديات عمانية	نقد	محمد بن سيف الرحبي
2	على حواف الشعر	نصوص	محمدبن سيف الرحبي
3	خطى وأمكنة	رحلات	عبدالرزاق الربيعي
4	رحلة أبو زيد العماني (ط2)	رواية	محمد بن سيف الرحبي
5	حقول الكلام	مقالات	مسعود الحمداني
6	هذا الذئب يعرفني	نصوص	خالد بن علي المعمري
7	رحيق النار	نصوص	زهران القاسمي
8	الطبيعة في الرواية العمانية	دراسات	منى بنت حبراس السليمية
9	إيضاح الطريقة للفنون العريقة (فن المسبع)	شعر	خميس بن جمعة المويتي
10	إيضاح الطريقة للفنون العريقة (التغرود)	شعر	خميس بن جمعة المويتي
11	قديس يحلق بعيدا	شعر مترجم	الشاعر الكوري: تشو أهيون ترجمة:أشرف أبو اليزيد
12	مظلة الحب والضحك	نصوص	بشرى خلفان
13	الديك	رواية	سالم الجابري
14	رفرفة (ط2)	قصص	بشرى خلفان
15	نوارس الحكايات	قصص	محمد بن سيف الرحبي
16	حدود المشاوير	شعر شعبي	محمد الراسبي
17	إشكاليات الشعر في المسرح الشعري	دراسات	رقية بنت سيف البريدية
18	القافر	رواية	د. خالد الكندي
19	أدب الرحلات العمانية	دراسات	مريم الغافرية
20	مراثي زهرة الليمون	شعر	سالم بن عبد الله الحميدي
21	على سطحنا طائر غريب	مسرحيات	عبد الرزاق الربيعي
22	الدين والدولة	دراسات	خالد محمد عبده

تابع إصداراتنا

م	الكتاب	نوعه	المؤلف
23	ورد اليتامى	قصص	سالم بن عبد الله الحميدي
24	روائح الفقراء	قصص	سالم بن عبد الله الحميدي
25	التشكيل الفني	دراسات	د.أحمد حالو
26	الشخصية الروائية	دراسات	كاملة بنت سيف الرحبي
27	يوم على تخوم الربع الخالي	قصص	خليفة العبري
28	فيض الإحساس	شعر	حبراس بن شبيط السمائلي
29	مرارة الذيب	رواية	د. خالد بن سليمان الكندي
30	حكايات عمانية	قصص	-
31	غياب على شرود الظل	نصوص	مريم السيابية
32	حياة بين زمنين	رواية	سالم الجابري
33	بيت وحيد بصحراء	قصص	يحيى سلام المنذري
34	أبجد هوز قواعد موسيقية	موسيقى	فكرة والحان د.ريهام توفيق /أشعار: نورة البادي/ توزيع: أحمد الجوادي
35	SALMA'S STORY	Biography	Mohammed bin Saif Alrahbi
36	LE DETECTIVE	Novel	Khalid Ben Soulayman AL-KINDI
37	فضاء حر	مقالات	سالم بن عبدالله الحميدي
38	علبة مسامير	مقالات	هلال البادي
39	ماحدث بعد ذلك	مسرح	هلال البادي
40	خطاوي الطير	رحلات	خلفان الزيدي
41	في الكتابة وآلأم	حوارات	منير عتيبه
42	سفر هو حتى مطلع الشمس	قصص	سمير العريمي
43	تقطعات منسية	نصوص	هاجر المحفوظي
44	رائحة لم ينتبه لها أحد	قصص	سعيد الحاتمي

إصداراتنا بالتعاون مع الجمعية العمانية للكتاب والأدباء

1	النباتات البرية في سلطنة عمان	علوم	يحيى بن سعيد الفطيسي
2	ابن عربي عندما يكون الحب حائرا	دراسات	عثمان بن موسى السعدي
3	نظرية قدامة	دراسات	قاسم بن سالم آل ثاني
4	القرائن في التراث النحوي	دراسات	د. خالد بن سليمان الكندي
5	دولاب محمد	للأطفال	سميرة الخروصي
6	المشهد القصصي في الأردن	دراسات ونصوص	مجموعة كتاب أردنيين
7	الأيام الثقافية العمانية في الأردن	فعاليات	جمع وإعداد: أزهار أحمد
8	خناتة بنونة في المرايا المنعكسة	مقالات	مجموعة كتاب

إصداراتنا بالتعاون مع البرنامج الوطني لدعم الكتاب بالنادي الثقافي

1	النباتات البرية في سلطنة عمان	علوم	يحيى بن سعيد الفطيسي
2	ابن عربي عندما يكون الحب حائرا	دراسات	عثمان بن موسى السعدي
3	نظرية قدامة	دراسات	قاسم بن سالم آل ثاني
4	القرائن في التراث النحوي	دراسات	د. خالد بن سليمان الكندي
5	دولاب محمد	للأطفال	سميرة الخروصي

إصداراتنا بالتعاون مع الجمعية العمانية للمسرح

1	الآخر في المسرح العماني	دراسة	د. كاملة بنت الوليد الهنائية د. سعيد بن محمد السيابي

إصداراتنا 2014

م	الكتاب	نوعه	المؤلف
1	التباسات	نصوص	الخطّاب المزروعي
2	ضجر الخسارات	شعر	رشا أحمد
3	عين قطر	قصص	سمير العريمي
4	أم المشكلات	دراسات	د. محمود خالص
5	قطوف الشجرة الطيبة	شعر	سعيدة خاطر الفارسي
6	مراجيح ملونة	قصص أطفال	أزهار أحمد
7	الأيادي الملونة	قصص أطفال	عائشه عبدالله الحارثية
8	من الفرضاني .. يوميات رحلة إلى زنجبار وممباسا والبر الإفريقي	رحلات	محمد المحروقي
9	من زنجبار إلى دار السلام	دراسات	سعود بن علي الحارثي
10	الصبي والبحر	قصص أطفال	أزهار أحمد
11	الجوهرة والقبطان	رواية	زوينة الكلباني
12	سكنة الأحرف	شعر	سالم بن حمدان الحجري
13	غواية المجهول: عمان في الأدب الإنجليزي	دراسات	هلال الحجري
14	توظيف مسرح العرائس في المسرح المدرسي بسلطنة عمان	دراسات	علي بن صالح العلوي
15	الرائدة أ. د. فاطمة سالم	دراسات	د. آسية بنت ناصر البوعلي
16	كائنات الظهيرة	شعر	عوض اللويهي
17	الشويرة	رواية	محمد سيف الرحبي

طبع بمطابع مؤسسة عمان للصحافة والنشر والإعلان